دراسـات تاريخيـة

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
تقديم
مقاومة المدن الاسلامية للغزاة
محاولات انقلابية في تاريخنا
شيء عن جاهلية العرب
عين جالوت : الواقعة والمغزى
دراسات بلدانية تراثية
فلسطين في الادب الجغرافي العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعتمد الدراسة التاريخية طريقتين للعرض. تقوم احداهما على اختيار مسالة واحدة استعراضا ومناقشة وتحليلا لكي تأخذ مساحة كتاب بكامله. وتقوم الاخرى على طرح عدد من القضايا موزعة على مساحات من التأريخ الاسلامي ممتدة في الزمان والمكان ، كما يشهد القاريء في هذا الكتاب ، وهو الثاني في هذا السبيل بعد كتاب (في التأريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل).

أرجو ان اكون قد وفقت في ذلك وانا اتناول (مقاومة المدن الاسلامية للغزاة) حينا ، و(المحاولات الانقلابية في تأريخنا) حيناً آخر ، و(شيء عن جاهلية العرب) حينا ثالثا ، و(فلسطين في الأدب الجغرافي العربي) حينا رابعا. وابحاث اخرى تناولت دراسة بلدانية وواقعة عين جالوت ومعطيات المستشرقين ازاء السيرة.

ويظل التاريخ الاسلامي حقلا خصبا للكثير من الدراسات والابحاث.

ومن الله وحده التوفيق.

الموصل عماد الدين خليل

مقاومة المدن
الاسلامية للغزاة

تمهيد

تمثل مقاومة المدن الاسلامية للغزاة احدى الحلقات المهمة والمثيرة في تاريخنا الاسلامي، حيث يلتقي الثبات على العقيدة والايمان الفعال والتخطيط المدروس والقدرة على الاستجابة للتحديات بالتردد والخوف والخيانة والنكوص، على صعيد واحد، وحيث يتحرك المؤمنون بعدالة قضيتهم كما اراد لهم الله ورسوله ان يتحركوا لمجابهة الغزاة وتثبيت كلمة الله في الارض. انها عرض مكثف مترع بالقيم والدلالات. فهي على المستوى الحضاري صراع الحق ضد الباطل والنور ضد الظلام والتحضر ضد التخلف والايمان ضد الكفر والاسلام ضد الجاهلية. وهي على المستوى العسكري – السياسي، والستراتيجي عموما، تغيير خطير لخرائط الصراع، وتوزيع جديد لمراكز القوى، وقلب للموازين كان يؤول في كثير من الاحيان الى تحقيق نتائج حاسمة لصالح الوجود الاسلامي.

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقدر – بفقهه العسكري المعروف – الحجم الحقيقي لمقاومة المدن، والنتائج الحاسمة التي يمكن ان تتمخض عنها. وهو عندما بلغته انباء التحرك الوثني لسحق المؤمنين قبيل معركة (أحد) سعى لان يجابه الموقف الخطير باعتماد اسلوب (حرب المدن)، وعرض على اصحابه ان يظلوا في المدينة ويدعوا قريشاً حيث نزلت " فان اقاموا اقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها "، فكأنه (صلى الله عليه وسلم) كان يريد ان يعتمد الخطة التي يسمونها اليوم (حرب الشوارع) او (الازقة والبيوت والحارات)، فحيثما كان المهاجمون اكثر عددا من المدافعين كان الاجدر ان يحتمي هؤلاء داخل مدنهم كي يتمكنوا من انزال ضرباتهم بالعدو الذي يجد نفسه مضطرا الى التشتت في انحاء المدينة التي لا يعرف الكثير من منعطفاتها وزواياها، هذا فضلا عن ان قتالا كهذا سيتيح للنساء والشيوخ والاطفال ان يشاركوا فيه.

لكن المسلمين الذين فاتهم شرف الجهاد في معركة بدر قبل عام واحد، وخاصة الشباب منهم، الحوا بالخروج لمجابهة العدو وقالوا : يا رسول الله اخرج بنا الى اعدائنا لا يرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا !! وأيدهم في هذا عدد من كبار الصحابة قائلين : انا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت في بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله الينا في ساحتنا.

وبسبب من الثقة العميقة التي كان الرسول (عليه السلام) يوليها لاصحابه وتقديرا منه لروحهم الفدائية ورغبتهم الاكيدة في المجابهة، وخوفا من ان يطول النقاش وتتعرض وحدة

الصف المسلم للخطر، وتلبية لنداء الشباب المتحمسين للقتال والشهادة، أسوة باخوانهم في بدر، اسرع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فدخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه، وما ان رآه المسلمون الذين الحوا بالخروج حتى ندموا وقالوا : استكرهنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن لنا ذلك، وعرضوا عليه ان يعود الى رأيه الاول، الا انه اجابهم بالحسم الذي يليق بقيادة الانبياء عليهم السلام " ما كان لنبي اذا لبس لامته ان يضعها حتى يقاتل، فأنظروا ما امرتكم به فافعلوه ". ومن ثم غادر المدينة على رأس اصحابه لكي يلتقي بالمشركين في (احد) وتكون المعركة التي يعرف تفاصيلها الجميع[١].

أما معركة الخندق التي اعتمدت فيها حتى النهاية خطة (قتال المدينة) الدفاعية فقد كتب عنها الكثير باعتبارها حجر الزاوية في تاريخ المقاومة الاسلامية الطويل، وفي تغيير مؤشرات الصراع بين الاسلام والجاهلية، ولكونها حققت الكثير من النتائج الحاسمة، وقدمت نموذجا مؤثرا ومدروسا في صراع المدن ضد الغزاة.

وقد سبق وان تناولت تفاصيلها السياسية والعسكرية في كتاب (دراسة في السيرة)[٢] فما ثم داع للتكرار اللهم الا حيث افترضت ضرورات المقارنة ذلك من اجل استكمال الصورة وتقديم عرض اكثر استشرافا وامتدادا في الزمان والمكان.

فأما الموضوع الذي بين ايدينا فسيعالج مقاومة ثلاث من المدن الاسلامية للغزاة في مراحل تأريخية متباعدة. اولاها مقاومة حلب للصليبيين وثانيتها مقاومة الموصل للمغول اما ثالثتها فستعرض مقاومة مدينة ماردين، في الجزيرة الفراتية، للغزو التيموري الخطير.

وما هي الا نماذج فحسب. فكثيرة هي المدن الاسلامية التي وقفت بصمود ازاء الهجمات الخارجية، وتمكنت – بالاخذ بالاسباب – من دحر الغزاة وكسر شوكتهم، او وقف تدفقهم واندفاعهم وعرقلة حركتهم على الاقل، ومن ثم لعبت دورها في تغيير موازين الصراع وخرائطه، مما يمكن ان يكون مجالا خصبا للكثير من الدراسات والابحاث[٣].

---

(١) أنظر بالتفصيل : دراسة في السيرة للمؤلف ، ص١٨٧-٢٠٤.

(٢) أنظر ، ص ٢٠٩-٢١٩ من الكتاب المذكور.

(٣) أنظر على سبيل المثال – كذلك – ما كتبه كل من محمد عبدالله عنان في كتاب (نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين) وستانلي لين بول في كتاب (قصة العرب في اسبانيا).

حلب تتصدى للصليبيين

تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مرارا عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام، وكان ابرزها واخطرها ولاريب حصار عام (٥١٨هـ).

فقد ادرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين امارتين صليبيتين هما الرها شرقا في الجزيرة الفراتية، وانطاكية غربا على البحر المتوسط، في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الاسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والاناضول وشمالي الشام مما يعد اساسا حيويا لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق اهداف حاسمة ضد الصليبيين. وفي المقابل فان اسقاط حلب وضمها الى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وانطاكية، ويعجل اقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دورا خطيرا لصالح الغزاة.

كانت حلب قد بلغت درجة كبيرة من الضعف منذ ان توفي اميرها رضوان ابن تاج الدولة تتش السلجوقي عام (٥٠٧هـ) واعقبه في حكمها أبناؤه الضعفاء وتحكم فيهم أوصياؤهم، وعند مقتل لؤلؤ، غلام رضوان والحاكم الفعلي في حلب، على ايدي الجند سنة (٥١١هـ)، تدهورت الامور فيها واصبحت سهلة المنال. فلما خلفه يا رقتاش الارمني هادن " روجر " امير انطاكية وبذل له الاموال وتنازل له عن بعض المواقع كما منحه الحق في استيفاء رسوم محددة على القوافل. ولم يقف الامر عند هذا الحد بل غدت حلب تعتمد على " روجر " في رد كل من تحدثه نفسه للاستيلاء عليها من امراء المسلمين وحكامهم، فكأنها – والحالة هذه – قد اصبحت في حماية الغزاة.

وإذ ادرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الاوضاع القلقة وضرورة تسليمها لأمير قوي أرسلوا الى ايلغازي الارتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها اياه، فتقدم هذا الى حلب عام (٥١١هـ) وتولى مقاليد الامور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الاحيان إلى الغياب عن حلب وادارة ظهره لمشاكلها. وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام (٥١٦هـ) سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام امارته بين ابنائه وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن اخيه بلك بن بهرام وتوليه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة قطع الطريق على هؤلاء وانقذ حلب من خطر محقق، غير ان مقتل بلك بعد سنتين

من توليه الحكم وانتقال امارته الى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية امام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها. ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الاوضاع في حلب اثر تولي تمرتاش الحكم ويقول : " فاما تمرتاش فانه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في امور الملك، ففسدت الاحوال وضعف امر المسلمين بذلك "[١].

وقد بدأ تمرتاش ولايته باطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد اسره في احدى معاركه ضد الغزاة وذلك لقاء مبلغ تافه من المال. وقد أطلقه تمرتاش من معتقله واحضره الى مجلسه " فاكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكيا واعيد اليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره "[٢]. ولم يلبث تمرتاش – بعدها – ان انسحب الى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة.

وبهذا اتيحت لهؤلاء الفرصة – كرة اخرى – لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام (٥١٨ هـ) (حصارا) من اخطر ما تعرضت له في تأريخ الحروب الصليبية الطويل.

بدأت المحاولة (بخيانة) تقدم بها احد الامراء العرب : دبيس بن صدقة المزيدي امير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بان له انصارا في حلب وانهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا اليه البلد. ووعد بلدوين امير انطاكية وجوسلين امير الرها بانه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له وقال لهما : " انني اكون في حلب نائبا عنكم مطيعا لكم"[٣]. وتمكن – اخيرا – من التوصل مع الصليبيين الى اتفاق تكون حلب بمو جبه له، أما الاموال فتكون لهم، فضلا عن بعض المواقع القريبة من حلب[٤].

تقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب وافسد المناطق الزراعية المحيطة به ثم رحل الى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان (٥١٨ هـ) وتقدم جوسلين امير الرها بصحبة دبيس بن صدقة صوب ناحية اخرى من اعمال حلب وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت

---

(١) زبدة الحلب ٢/٢٢٠.

(٢) نفسه ٢/٢٢٢ ، ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٠٣–١٢٠ ، ١٢١.

(٣) ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٣٧–٢٣٨ ، ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٢ ابن خلدون : العبر ٥/١١٢–١١٣.

(٤) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٢–٢٢٣ ، ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٠٣ ، ١٢٠–١٢١ ابن الفرات : تأريخ (مخطوط) ٢/٨٤–٨٥.

الخسائر بما يقرب من مائة الف دينار، ومن ثم رحلا ونزلا مع بلدوين على حلب واجتمع بهم هناك (خونة) آخرون من اجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب : سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الارتقي. وفرضوا جميعا الحصار على حلب من شتى جهاتها[١]" ووطنوا انفسهم على المقام الطويل وانهم لا يغادرونها حتى يملكوها وبنوا البيوت لأجل البرد والحر "[٢] ، فضلا عن ثلاثمائة من الخيام بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس[٣].

بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب وقطعوا اشجارها وافسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الاولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم وسلبوا اكفانهم وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم !! وعمدوا الى من لم تتقطع اوصاله منهم فربطوا في ارجلهم الحبال وسحبوهم امام انظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون : " هذا نبيكم محمد!! "، واخذت جماعة منهم مصحفا من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا : يا مسلمين ابصروا كتابكم !! ثم ثقبه احدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه باسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه. وكلما ابصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجبا وزهواً[٤].

ولم يكتف الصليبيون بهذا بل راحوا يمثلون بكل من يقع بايديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء الى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الاسلامية القاضي ابو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرس على اعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فاصدر اوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث اتت. وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل الى اتفاق ولكن دون جدوى[٥].

---

(١) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٥-٢٢٦ ، ابن الفرات : المصدر السابق ٢/٨٥-٨٦.

(٢) ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٣٧-٢٣٨ ، خلدون : العبر ٥/١٢-١١٣.

(٣) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٤-٢٢٥.

(٤) نفسه ٢/٢٢٣-٢٢٥ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم حلب المنشور) ، ص ٤٥ ، ابن الشحنة : المنتخب ، ص ٨٢ ، ابن الفرات : تأريخ (مخطوط) ٢/٨٥.

(٥) ابن العديم : زبدة ٢/٢٥٥ ، ابن القلانسي : ذيل ، ص ٢١٢ ، ابو الفدا : المختصر ٢/٢٤٩ ، ابن خلدون : العبر ٥/١١٢-١١٣ ، ٤٩٠-٤٩١ ، ابن الشحنة : المنتخب ، ص ٢١٨-٢١٩ ، ابن الفرات: تأريخ (مخطوط) ٢/٨٥-٨٦.

ضاق الامر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الارهاق والجوع، فأتفق اميرهم بدر الدين الارتقي وجماعة من كبار المسؤولين على ارسال وفد من زعماء حلب الى ديار بكر للاستنجاد باميرها حسام الدين تمرتاش. وتسلل اعضاء الوفد الثلاثة ليلا ومضوا الى ماردين – قاعدة ديار بكر – ليستغيثوا باميرها عله يولي اهتماما لما تعانيه حلب من ويلات. وعندما وصلوا الى هناك كان حسام الدين منهمكا في الاستيلاء على بلاد اخيه سليمان الذي كان قد توفي في تلك السنة، الامر الذي دفعه الى اهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي اعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه الى حلب لانقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون ان يقدم على اي اجراء، فأعلموه انهم لا يريدون سوى ان يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه امر الغزاة. المهم ان يصل الى هناك وان يكون للمدينة المحاصرة أمير يشار اليه بالبنان[١].

أزدادت الاحوال في حلب سوءا وقلت الاقوات بها وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والمرض، ويحدثنا ابن العديم كيف " كان المرضى يئنون لشدة المرض فاذا ضرب البوق لزحف الافرنج قام المرضى كأنهم نشطوا من عقال وزحفوا الى الفرنج وردوهم الى خيامهم، ثم يعودون الى مضاجعهم "[٢]، وزاد في الامر سوءا ان اتبع بعض امراء حلب سياسة ظالمة تجاه الحلبيين اذ صادروا املاكهم وسلطوا الجند عليهم[٣] ولما طال انتظار المحاصرين لنجدة حسام الدين تمرتاش وظهر منه الوهن والاهمال، كتب احدهم الى الوفد يخبره بما آل اليه امر حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش فغضب وقال : " انظروا الى هؤلاء !! يتجلدون علي ويقولون : اذا وصلت فاهل حلب يكفونك امرهم، ويغررون بي حتى اصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة !! "[٤] ، ثم امر بمراقبة تحركات الوفد حتى لا يغادر اعضاؤه ماردين للاستنجاد بامير آخر، الامر الذي قد يزيد مركز حسام الدين ضعفا ويفقده مدينة حلب نهائيا. ولكن هؤلاء تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب الى الموصل للاتصال بواليها السلجوقي : آق سنقر البرسقي[٥].

كان البرسقي حينذام مريضا وكان الضعف قد بلغ منه مبلغا عظيما فمنع الناس من الدخول عليه الا الاطباء. ووصل الى دبيس من اخبره بذلك، فاعلن البشائر في عسكره وارتفع

---

(١) ابن العديم : زبدة ٢/٢٥٥-٢٢٦ ، ابن الفرات : المصدر السابق ٢ ، ٨٥-٨٦.

(٢) زبدة ٢/٢٢٧.

(٣) نفسه ٢/٢٣٠.

(٤) نفسه ٢/٢٢٦-٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ١٠/٢٣٧-٢٣٨.

(٥) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٧-٢٢٨ ، ابن الفرات : تأريخ (مخطوط) ٢/٨٥-٨٦.

عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض اصحابه اهل حلب : قد مات من أملتم نصره، فكادت أنفس الحلبيين تزهق[1].

عندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الاخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها اهل المدينة فأجابهم الرجل " انكم ترون ما انا الآن فيه من المرض ولكني قد جعلت لله علي نذرا لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في امركم والذب عن بلدكم وقتال اعدائكم ". ولم تمض ثلاثة ايام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى وتماثل للشفاء وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل ونادى قواته لان تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب. وفي غضون ايام معدودات غدا جيشه على اهبة الاستعداد، فغادر الموصل متجها الى الرحبة وارسل من هناك الى طغتكين امير دمشق وخير خان امير حمص يطلب منهما مساعدته في انجاز مهمته فلبى هذان الاميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام الى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب، واسل من هناك الى مسؤوليها وشرط عليهم – مسبقا – تسليم قلعة حلب لنوابه كي يحتمي بها في حالة انهزامه امام الصليبيين، فأجابوه الى طلبه، وما أن استتب الامر لهؤلاء النواب واطمأن الرجل الى وجود حماية امينة في حال تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوق حلب[2].

وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة (٥١٨هـ) وما ان اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى اسرع الصليبيون في التحول الى منطقة افضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق الى انطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد ان كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون الى خيامهم فنالوا منها ما ارادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله. وقد ادرك الرجل ما يرمي اليه الصليبون بانسحابهم واتخاذهم موقفا دفاعيا، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل ان يعيد تنظيم قواته من جديد خوفا من نزول هزيمة فادحة بعساكره قدد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدمة الى معسكراتها في حلب وقال، موضحا خطته هذه : " ما يؤمننا ان يرجعوا علينا ويهلك المسلمون ؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل الى البلد ونقويه وننظر الى مصالحه، ونجمع لهم ان شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك اليهم ". ومن ثم دخل البرسقي حلب وبدا بحل

---

(١) ابن العديم : زبدة ٢٢٨/٢.

(٢) نفسه ٢٢٨/٢–٢٢٩ ، ابن الاثير : الكامل ٢٣٧/١٠–٢٣٨ ، ابن القلانسي : ذيل ، ص ٢١٢ ، ابو الفدا: المختصر ٢٤٩/٢ ، ابن خلدون : العبر ١١٢/٥–١١٣، ٣٩٠–٤٩١ ، الغزي : نهر الذهب ٨٦/٣–٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ (مخطوط) ٨٨/٢.

مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل واصدر مرسوما برفع المكوس والمظالم المالية والغاء المصادرات، وعمت عدالته الحلبيين جميعا بعدما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي[١].

ولم يكتف البرسقي بذلك بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال الى المدينة كيف يخفف من حدة الغلاء ويقضي على الضائقة اللتي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب ان عاد الى حالته الطبيعية حيث استأنف المزارعون العمل في الاراضي التي شردوا عنها، كما عاد النشاط التجاري الى سابق عهده اعتمادا على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار[٢].

وهكذا استطاع البرسقي ان يحطم الطوق الذي احاط به الصليبون حلب، وان يخلص هذا الموقع الهام من اخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الموصل لاول مرة منذ بدء هذه الحروب، الامر الذي اتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده ان يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة.

يقول المؤرخ الانكليزي المعاصر ستيفن رنسيمان. " سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة اسلامية متحدة زمن الزنكيين والايوبيين والمماليك. ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة واقطاعات متفرقة زادت من ضعفها، وما حدث – اذن – من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الاسلامية التي قدر لها ان تقضي في يوم من الايام على قوة الصليبيين في الشام "[٣].

---

(١) ابن العديم : زبدة ٢/٢٢٩–٢٣٠.

(٢) نفسه ٢/٢٣٠.

(٣) أنظر : السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١/٣٤٥ ، ٤٨٥–٤٨٦.

الموصل تقاوم المغول

في مطلع عام (٦٦٠هـ) يمم التتر وجوههم صوب الموصل لاخضاعها لسيطرتهم. وكانوا يدركون جيدا الاهمية السياسية والعسكرية لهذه المدينة التي تعد قاعدة الجزيرة الفراتية ومفتاح المواصلات بين فارس والعراق والشام والاناضول، فضلا عن اهميتها الاقتصادية التي أكدها وأشاد بها الرحالة والجغرافيون. وكان يقود الغزاة القائد التتري صندغون (سنداغونويان : Sandaghoun). وقد انضاف اليه عدد من الامراء المسلمين بجندهم، اولئك الذين دفعهم الى خدمة الغزاة الخوف من العقاب الرهيب الذي اعتمده التتر لاخضاع خصومهم وتفننوا في طرائقه جنبا الى جنب مع الاغراءات التي كانوا يمنون بها هؤلاء الخصوم وينثرونها بسخاء ذات اليمين وذات الشمال. فهي اذن محبة الدنيا وكراهية الموت، رغم انها كانت تتمخض في كثير من الاحيان عن خلاف ذلك تماما : خسارة الدنيا والآخرة والاذعان للموت عبر اشد المواقف مذلة وخزياً.

وبالعكس تماما فان الرجال الذين احبوا الموت وكرهوا الدنيا خافهم الموت ودانت لهم الدنيا. وما كانت واقعة (عين جالوت) بعيدة عن الاذهان وهي التي لم يمض – على وقوعها سوى سنة ونصف. لكنه الوعد الذي يعمي والوعيد الذي يصم.

لقد زحف مع الغزاة الوثنيين – اذن – أمراء مسلمون كان ابرزهم ولاريب الملك المظفر الارتقي صاحب ماردين قاعدة ديار بكر في اقصى شمال الجزيرة الفراتية على رأس قواته.

كان يحكم الموصل يومها الملك الصالح ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ، وكان لؤلؤ هذا قد انتزع الملك من احفاد عماد الدين زنكي بعد ان تولى الوصاية على آخرهم ردحا من الزمن كان يهيمن فيه على مقدرات الامارة وبعد العدة لتصفية آخر امير أتابكي لكي ما يلبث ان يغدو حاكم الموصل والجهات الواسعة المحيطة بها، العقود الطوال، ثم يتوفى عام ٦٥٧ هـ دون ان يترك فرصة واحدة للتقرب من المغول والتذلل لهم حماية لعرشه.

وابن العبري، المؤرخ يقدم صورة طريفة ومحزنة عن سلوك هذا الحاكم (المستميت) على شهوة السلطان، وهو السلوك الذي تكرر وسيتكرر مرارا مع كثير من امراء المسلمين يومها، وسيغدو هؤلاء لعبة في يد المغول يتسلون بها كما يتسلى اللاعبون بقطع الشطرنج. يقول المؤرخ المذكور : لما ملك هولاكو بغداد واحكم قبضته على مقدراتها انقذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه الملك الصالح اسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدة له، فاظهر هولاكو عبسة له وقال : أنتم بعد في شك من امرنا وماطلتم نفوسكم يوما بعد يوم، وقدمتم رجلا وأخرتم اخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا. قل لابيك :

لقد عجبنا منك تعجبا كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل، وأتخذت اليقين ظنا وقد لاح لك الصبح ولم تستصبح. فلما عاد الصالح الى الموصل وبلغ اباه ما حمل من الرسالة الزاجرة ايقن بدر الدين ان المنايا قد كشرت له عن انيابها، وذلت نفسه وهلع هلعا شديدا. فانتبه من غفلته واخرج جميع ما في خزانته من الاموال واللآليء والجواهر والثياب وصادر ذوي الثروة من رعاياه واخذ حتى حلي حظاياه والدرر من حلق اولاده، وسار الى طاعة هولاكو بهمذان، فأحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنه ورق له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة واستأمن اليه وداعبه وقدمه الى ان اصعده اليه على التخت وأذن له ان يضع بيده في اذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درتان يتيمتان. وأقام في خدمته اياما ثم عاد الى الموصل مسرورا، بل مذعورا مما شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه[1].

فها هو ذا خليفته وابنه يتعرض للمحنة المحتومة، فهو إما ينحني ويذوب وإما ان يصبر ويتحمل رعد الغزاة وبرقهم وصواعقهم. وقد اختار الثانية خلافا لما كان عليه ابوه. ومن اجل ان يتمكن من الصمود سعى الى تحسين علاقته مع الدولة المملوكية في مصر والشام حيث كانت تمثل مركز المقاومة الاسلامية الام للهجمة المغولية، سيما بعد انتصارها الحاسم في عين جالوت في اقل من سنتين، وبعد ان تبوأ قيادتها رجل محنك قدير هو الظاهر بيبرس.

يمم الملك الصالح وجهه صوب مصر مستصحبا معه عدد من إخوته وافراد عائلته فتلقاهم السلطان بالترحاب وبالغ في اكرامهم وعطائهم اذ كان يدرك جيدا ان الجزيرة الفراتية وقاعدتها الموصل تمثل رأس الرمح في المقاومة الاسلامية للغزاة والامتداد الستراتيجي لدولة المماليك للضغط على المغول في العراق وبلاد فارس، وقد اكد السلطان الظاهر، عن طريق المنشورات الادارية التي منحها الصالح واخوته سلطة هؤلاء على البلاد التي يحكمونها[2].

لكن الموصل، التي قرر الملك الصالح ان يقفل عائدا اليها بعد ان أمن ظهره، وعزز علاقته بالمماليك، كانت قد شهدت سلسلة من الاحداث. فالمندوب التتري المقيم في الموصل والذي كان بدر الدين لؤلؤ قد رحب به من قبل، لم يرتح لتوجه الملك الصالح الى مصر بما يحمله من مغزى واضح، وكان من بين من خرجوا من الموصل لتوديع الصالح، يومها، احد قواده : علم الدين سنجر، فلما رجع هذا القائد الى المدينة منعه المندوب التتري من دخولها، ولكن سنجر تمكن من الاحتيال عليه والتسلل اليها مع رجاله خفية، ووجد المندوب التتري نفسه مضطرا للجوء الى القلعة. وتلا ذلك قيام سنجر بالايقاع بالنصارى وكنائسهم وأديرتهم بسبب

---

(1) مختصر تاريخ الدول ، ص ٤٨٢-٤٨٣ ، وانظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، مجلد ٢، جزء ١ ، ص٣٠٠-٣٠١.

(2) المقزيزي : السلوك ٤٦٠/٢/١-٤٦١ وانظر رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٢٧/١/٢.

تحالفهم مع التتر وانتهازهم الفرص للانتقام من المسلمين. وبينما كانت المدينة تشهد هذه الاحداث وصلها الجيش التتري بقيادة صندغون الذي كان قد انتمى الى النصرانية في فترة سابقة أسوة بالعديد من رجالات التتر، وفرض الحصار عليها وأخذ يعد العدة لهدم سورها، فلما بلغه ان الملك الصالح قد قفل عائدا من مصر وانه على مقربة من الموصل يريد الدخول اليها، رفع الحصار عنها وانتحى موضعا خفيا حتى يمكن الصالح من الدخول ومن ثم يطبق عليه، وما ان دخل الاخير حتى عاد صندغون الى احكام الحصار[١].

لم يكن مع الصالح يومها – فيما يرويه اليونيني – سوى سبعمائة فارس[٢] ، وربما يكون هذا الرقم مبالغا فيه باتجاه آخر : التقليل الذي يتعمد ان يصور الصراع بين طرفين غير متكافئين تماما لكي تكون الصورة اكثر تأثيراً !! ذلك ان مؤرخ المغول رشيد الدين يشير الى انه كان في الموصل – يومها – جيش كثير من الاكراد والتركمان[٣].

فرض الغزاة حصارهم على المدينة وشددوا النكير عليها، وأقاموا المتاريس ونصبوا اربعة وعشرين منجنيقاً " فضايقوها اشد مضايقة، ولم يكن فيها سلاح يقاتلون به ولا قوت يمسك رمق من فيها، وغلا فيها السعر حتى بلغ المكوك بها اربعة وعشرين دينارا "[٤]. ومن اجل ان يحض المقاتلين على المقاومة وزع الملك الصالح عليهم الدراهم والدنانير وقال: " إن الظاهر بيبرس سيمدنا بالجيش من مصر حينما يعلم بالامر "[٥].

ولم يجد أمير الموصل بدا من الاستنجاد بالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس، حيث توجه اخواه يطلبان المعونة ، ويشير المقريزي الى ان السلطان جرد حملة عسكرية من القاهرة، كما كتب الى دمشق بخروج عسكرها[٦] ، ولكن يبدو ان بعد الشقة وانشغال قائد الحملة : شمس الدين سنقر الرومي بالاغارة على انطاكية وعدد من المواقع الصليبية شمالي الشام صرف النجدة عن هدفها الرئيسي[٧] ، وربما اكتفى السلطان بالحملة التي قادها البرلي من حلب لنجدة الموصل. وقد استنفر الصالح – كذلك – الأمراء المسلمين ها هنا وهناك، وكان اقربهم الامير

---

(١) ابن ابي الفضائل : النهج السديد ، ص ٩٤ فما بعد ، المقريزي : السلوك هامش ٤ ، ٤٦٧/٢/١–٤٦٨ وانظر رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٢٧/١/٢–٣٢٨.

(٢) ذيل مرآة الزمان ٤٩٢/١.

(٣) جامع التواريخ ٣٢٨/١/٢.

(٤) اليونيني : ذيل ٤٩٢/١.

(٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٢٨/١/٢.

(٦) السلوك ٤٦٧/٢/١–٤٦٨.

(٧) أنظر المصدر السابق ٤٢٧/٢/١.

شمس الدين البرلي في حلب، وكان هذا عند حسن الظن إذ ما لبث ان خرج على رأس قواته وتقدم شرقا صوب سنجار الواقعة على الطريق الى الموصل، فلما علم التتر باقترابه، حيث لم يتبق امامه سوى ثلث الطريق، عزموا على فك الحصار والهروب. ولكنها الخيانة – مرة اخرى – اذ اتفق ان وصل اليهم امير مسلم يدعى الزين الحافظي كان قد التحق بخدمة هولاكو، وأعلمهم ان القوة التي يقودها البرلي ليست بذات شأن وان المصلحة ملاقاة البرلي لئلا يتهم التتر بالعجز فيطمع فيهم الخصوم[١] !!

ارتفعت معنويات الغزاة وعزموا على ملاقاة البرلي، وانطلق قائدهم صندغون على رأس عشرة آلاف فارس صوب سنجار، تاركا قواته الاخرى على حصار الموصل. ولم يكن مع البرلي في حقيقة الامر سوى قلة من المقاتلين تمكن من جمعهم بصعوبة : بضع مئات من الفرسان الاتراك والعرب تبلغ الفاً ومائتين عددا. وقد تردد البرلي – ومن حقه ان يتردد – في مواجهة خصمه الذي يفوقه بكثير، ولكنه اختار ان يخرج اليهم في الرابع عشر من جمادي الآخرة فدارت الدائرة عليه وانهزم جريحا في رجله، وقتل وأسر من اصحابه عدد كبير. وقد تمكن من الوصول الى البيرة على نهر الفرات ثم غادرها في التاسع عشر من رمضان ميمما وجهه شطر مصر حيث دخلها بعد اسابيع قلائل، فكرمه السلطان الظاهر بيبرس وانعم عليه[٢].

عاد صندغون بالاسرى الى الموصل وسعى الى اعتمادهم ورقة رابحة في لعبة الحرب النفسية التي اتقنها التتر جيدا فأدخلهم من ثقوب الاسوار لكي يتصلوا بالملك الصالح ويعرفوه بهزيمة البرلي وانكسار عسكره ويشيروا عليه بالتخلي عن المقاومة وطاعة الغزاة[٣]. ويبدو ان المحاولة اخفقت إما بسبب اخلاص هؤلاء الاسرى وتنفيذهم دورا مخالفا تماما لما طلب منهم، وإما بسبب عزم الملك الصالح على المقاومة والصمود، ومن ثم استمر القتال حتى مستهل شعبان حيث دخل الحصار العنيف شهره السابع، وهي مدة ليست بالقليلة ولم يألفها التتر التي كانت المدن الحصينة تطوى تحت ضرباتهم بيسر وسرعة، الواحدة تلو الاخرى.

ويقدم رشيد الدين (مؤرخ المغول) لمحات عن المقاومة التي ابداها المدافعون فيقول : " بادر اهل المدينة بالقتال عملا بقول الصالح، واطلقوا حجارة المنجنيق من كل جانب، وخرجت جماعة الاكراد للقتال، فدامت الحرب الحامية قرابة شهر، وذات يوم تسلق الاسوار ثمانون من شجعان المغول فقضى اهل الموصل عليهم جميعا ورموا برؤوسهم الى جيش المغول من اعلى

---

(١) اليونيني : ذيل ٤٩٤/١.

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، المقريزي ، السلوك ٤٧٥/٢/١-٤٧٦ ، رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٢٨/١/٢-٣٢٩.

(٣) اليونيني : ذيل ٤٩٤/١-٤٩٥.

الابراج وتشجعوا بهذا الانتصار كما تمكنوا من جرح احد قادة المغول (صدر الدين التبريزي) فتوجه الى تبريز بأذن من صندغون حيث التقى بهولاكو وابلغه بصمود اهل الموصل فأرسل جيشا آخر لامداد صندغون "[1].

وإذ عجز صندغون عن تحقيق هدفه بالقوة لجأ مرة اخرى الى ما اعتاده التتر كلما حزب بهم الأمر : الكذب وحرب الاعصاب فطلب ارسال علاء الملك بن الملك الصالح وأشاع انه قد وصل اليه كتاب من هولاكو " مضمونه ان علاء الملك ما له عندنا من ذنب وقد وهبنا له ذنب ابيه فسيره الينا لنصلح امرك معه "[2] !!

كان الملك الصالح قد ضعف وعجز " وغلبت المماليك على رأيه " في اللحظات القاتمة التي تطل عبرها الهزيمة متحدثة بلسان هذا الامير او ذاك ممن يؤثرون السلامة او يخدعون بها. ووجد الملك الصالح نفسه مضطرا الى اخراج ابنه الى معسكر الاعداء، فلما وصل اليهم احتجزوه اثني عشر يوما، ظن الملك الصالح انهم قد سيروه خلالها الى هولاكو عله يخفف من تشدده وينهي الحصار. لكن التتر ما لبثوا ان كتبوا اليه بعد ايام يأمروه بتسليم البلد وان لم يفعل فلا يلومن الا نفسه " اذا دخلنا البلد بالسيف وقتلنا من فيه "[3].

كان قد مضى على القتال ستة اشهر واجتاح الجو حر شديد بحيث عجز الفريقان عن مواصلة الحرب، وما لبث ان عصف بالمدينة القحط والوباء، فتوجهت حشود الناس الى الصحراء بسبب الجوع، وماظنوا انهم سيكونون طعمة لسيوف المغول الاشد جوعاً[4] !!

جمع الصالح اهل البلد والاجناد وشاورهم في الامر، فأشاروا عليه بالخروج الى معسكر التتر بعد ان فعل فيهم طول أمد الحصار، والجوع الذي لا يرحم، وترغيب الغزاة وترهيبهم. قال لهم : اذا خرجت فانكم تقتلون لامحالة وأقتل بعدكم !! لكنهم صمموا على خروجه.

وفي يوم الجمعة الخامس من شعبان ودع الصالح الناس بعد أداء الصلاة وانطلق الى معسكر القائد التتري، ملتفا بالملابس البيضاء !! يصحبه عدد من امرائه، فلما وصل الى هناك احتاطوا به ووكلوا عليه ومن معه من يتولى حراستهم. ثم ما لبث التتر ان اعادوه الى الموصل ومعه المنشور التتري حيث نادى في الناس بالامان !! فظهر هؤلاء بعد اختفاء وشرع التتر في تدمير الاسوار[5].

---

(1) جامع التواريخ ٣٢٨/١/٢.

(2) اليونيني : ذيل ٤٩٤/١ ، ابن العمري : مختصر ، ص ٤٩٥–٤٩٦.

(3) الايونيني : ذيل ٤٩٤/١.

(4) رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٢٩/١/٢.

(5) اليونيني : ذيل ٤٩٤/١–٤٩٥.

لكن الامان الذي منحه التتر ما كان سوى السراب الذي لوحوا به لسكان مدينة كان العطش يفتك بها. لقد فعلوها من قبل مراراً وسيفعلونها من بعد تكرارا. انها الخدعة التي تحقق لهم ما عجز السلاح عن تحقيقه، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ولكن حصارا مترعا بالخوف والجوع والعناد يتجاوز الاشهر السبعة عددا يجعل الانسان يتشبث باي شيء قد يخرجه مما هو فيه حتى ولو كان خدعة او وهما او سرابا !!

والنتيجة ان يسقى هؤلاء المخدوعون الكأس نفسها التي شربها من قبلهم وسيشربها من بعدهم جماعات المسلمين وأمراؤهم الذين وافقوا على الدخول في اللعبة والاذعان لنهايتها المحزنة.

يقول اليونيني المؤرخ : " فلما اطمأن الناس واشتروا وباعوا، دخل التتر البلد واجالوا السيف على من فيه تسعة ايام، وكان دخولهم في اليوم السادس والعشرين من شعبان"[١] عام (٦٦٠هـ-١٢٦٢م)، " وقتلوا في المدينة عالما لا يحصي عدده الا الله تعالى"[٢]. " ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية وهدموا المباني وتركوها بلاقع "[٣] ، كما قاموا بأسرعدد من ارباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق في الموصل احد. وبعد مغادرة المغول المدينة خرج ما يقرب من الف شخص من بين الجبال والمغارات[٤].

ولم ينج علاء الملك بن الملك الصالح رغم ان اباه كان قد لبى طلبهم بارساله اليهم ايام الحصار، فها هم اولاء. الذين يعترف مؤرخهم الرسمي (رشيد الدين صاحب جامع التواريخ) بتمرسهم في الغدر، يسوقونه الى حتفه وفق اشد الطرائق وحشية : شطروه نصفين علقوهما على باب الجسر جنوبي المدينة لكي ما يلبثوا ان يلحقوا به اباه بعد ايام قلائل من مغادرتهم الموصل في مطلع شوال عائدين الى ديارهم لكي يزفوا البشرى الى هولاكو[٥]. ويذكر رشيد الدين ان مقتل الملك الصالح تم بأمر من هولاكو نفسه بعد وصول الجيش المغولي لانه كان " غاضبا جدا "عليه، فطلب منهم ان يدهنوا جسمه بسمن الاغنام ثم يلفوه باللبد ويحكموه بالحبال ويلقوا به في

---

(١) نفسه.

(٢) ابن العبري : مختصر ، ص ٤٩٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣٠٠/٥ ، ابن خلدون: العبر ١١٥٤/٥ ، المقريزي : السلوك ٤٧٥/٢/١.

(٣) المقريزي : السلوك ٤٧٥/٢/١.

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ ٣٣٠/١/٢.

(٥) اليونيني : ذيل ٤٩٥/١ ، ابن العمري : مختصر ، ص ٤٩٦ ، ابن العماد : شذرات ٣٠٠/٥ ، ابن خلدون : العبر ١١٥٤/٥ ، المقريزي : السلوك ٤٧٥/٢/١.

شمس الصيف القائظ. فاستحال السمن بعد اسبوع الى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء[1].

وأخيرا. ماذا بشأن (الزين الحافظي) الذي خان بني جلدته ودينه لمرض في نفسه وكشف للمغول عن حجم القوة التي قادها البرلي لانقاذ الموصل ؟ وكان السبب وراء المجزرة التي شهدتها المدينة ؟

لقد أشربه اسياده المغول الكأس نفسه ونال جزاءه من جنس عمله، ففي اواخر عام (٦٦٢هـ) أحضره هولاكو بين يديه وقال له : انت قد ثبتت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول، فإنك خدمت صاحب بعلبك طبيبا فخنته واتفقت مع غلمانه على قتله حتى قتل، ثم انتقلت الى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به فلم تلبث ان خنته وباطنت عليه الملك الناصر حتى اخرجت قلعة جعبر من يده ثم انتقلت الى خدمة الملك الناصر (الايوبي) ففعل معك من الخير ما فعل حتى جرى عليه ما جرى، ثم انتقلت الي فاحسنت اليك احسانا لم يخطر ببالك فأخذت تكافئني بالافعال الرديئة وشرعت في مكاتبة صاحب مصر، فانت معي في الظاهر، خارجا عني في الباطن. وراح هولاكو يعدد له ذنوبا كثيرة من خيانته في الاموال التي كان قد سيره لجبايتها من البلاد، ثم ما لبث ان أمر بقتله وقتل اخوته واولاده واقاربه ومن يلوذ به، فكان مجموعهم نحو الخمسين نفرا ضربت اعناقهم صبرا ولم ينج منهم الا اثنان اختفيا في السوق[2].

يقول اليونيني معقبا : " إن مخازي الحافظي وخياناته على الاسلام اكثر من ان تحصر، منها اغراء التتر بالمسلمين واطماعهم في بلادهم وممالكهم بحيث ان كل دم سفكوه في الشام هو شريكهم فيه. وبعد اكتساح بغداد انفرد الحافظي بهولاكو وقال له : بغداد قد اخذتها، والشام بلا ملك، ومتى قصدته اخذته وانا المساعد فيه، فان اكثر من بدمشق اهلي واقاربي، فأعطاه هولاكو سكاكينا وقال : متى جاءني احد ومعه سكين من هذه أعلم انه من اقاربك، واخذ الحافظي مما سير معه من الهدية لهولاكو شيئا كثيراً "[3].

والزين الحافظي هو واحد من عشرات مارسوا الدور نفسه وذاقوا النهاية ذاتها، وساروا الى حتفهم بظلفهم.

---

(1) جامع التواريخ ٢/١/٣٣٠.

(2) اليونيني : ذيل ٢/٢٣٤-٢٣٥.

(3) نفسه ٢/٢٣٦-٢٣٧.

ماردين تتحدى تيمورلنك

تقع مدينة ماردين في قلب اقليم ديار بكر شمالي الجزيرة الفراتية وتعد قاعدته الاولى، وقد حكمتها لقرون عديدة أسرة تركمانية تدعى الاسرة الارتقية، نسبة الى جدها ارتق بن اكسك الذي برز كقائد عسكري شهير في بدايات العصر السلجوقي، والذي تمكن ابناؤه من بعده ان ينشئوا كيانا سياسيا في ديار بكر ويلعبوا دورا خطيرا في مقاومة الغزو الصليبي، وها هم احفادهم في ماردين يتعرضون لتحديات الهجوم المغولي بقيادة تيمورلنك والذي لم يكن باقل عنفا وهمجية عن الهجوم الاول الذي قاده هولاكو والذي اطلعنا على جانب منه ونحن نتحدث عن حصار الموصل.

بذل حكام ماردين لدى اقتراب الخطر التيموري جهودا كبيرة في اطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك واهدافه العسكرية، وفي تنبيههم الى مدى الاخطار التي تحيق، ليس بالامارات الموالية لهم، بل بوجود المماليك ذاته. كما غدت ماردين مركزا لاستخبارات المماليك في هذا الشأن، ولقد قام حكام المدينة بهذا الدور بسبب قربهم من مسرح الاحداث، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم، وولائهم للمماليك[1].

في مطلع رجب من عام (٧٨٩هـ-١٣٨٧م) عاد الى مصر من ماردين الامير طغاي الذي كان قد سافر الى ماردين لكشف اخبار تيمورلنك وأعلم المسؤولين ان اميران شاه بن تيمورلنك دحر قوة موالية للمماليك وانه توجه بعد ذلك صوب آمد في ديار بكر، ومن ثم تكاثرت الشائعات عن قرب قيام تيمورلنك بغزو الشام ومصر على رأس قوات كبيرة " فحصل للسلطان – الظاهر برقوق – تشويش عظيم بسبب ذلك "[2] وأمر بالاستعداد لمجابهة الموقف[3]. لكن تيمورلنك انشغل، طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية لعالم الاسلام ، ولم يوجه اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية (العراق، الجزيرة، الشام) الا في عام (٧٩٥هـ) بعد ان ثبت اقدامه في الشرق.

في شوال من ذلك العام ارسل تيمورلنك رسوله الى امير ماردين يطلب قدومه اليه، فأعتذر الامير قائلا : " بان على يده يدا وهو صاحب مصر " فأرسل تيمورلنك يقول له : ان اسلافك حكموا هذه البلاد منذ مئات السنين وكانت الخطبة والسكة بأسمهم " فإيش كان صاحب

---

(١) انظر ابن الفرات : تاريخ ٣٦١/٩-٣٧٨ ، ابن اياس: بدائع الزهور ٢٩٩/١ ، ٣٠٠-٣٠١ ، Lane-Poole Ahistory of Egypte in the Middle Ages. 331-32.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ ، ابن الفرات : تاريخ ١٠/٩.

(٣) ابن تغري بردي : المصدر السابق: نفس الصفحة.

مصر "[1] ؟ واوضح انه ليس لسلطان مصر حكم بماردين وطلب منه ان ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطته، فما كان من امير ماردين الا ان ارسل كتاب تيمورلنك هذا، وهداياه، الى مصر ليعلم رأي السلطان " فأعيد الجواب اليه بان يخطب باسم سلطانه الى ان نرى ما نختاره "[2] وقد اكد امير ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة المماليك والتزامه بما يرون بشأن هذا الحدث الخطير[3].

قام تيمورلنك في العام نفسه (٧٩٥هـ) بمهاجمة بغداد واجرى فيها مجزرة رهيبة، وتوجه في مطلع العام التالي نحو الشمال ففتح تكريت عنوة وتقدم الى الموصل فصالحه صاحبها وسار في خدمته ومن ثم تقدم غربا الى ديار بكر[4] الفاصلة بين العراق والشام فاستولى على عدد كبير من مدنها وحصونها في فترة قصيرة وقامت قواته خلال ذلك بنهب وتخريب معظم مناطق الاقليم، وقدم الى تيمورلنك هناك حاكمان محليان وأعلنا طاعتهما له فأعادهما الى امارتيهما دون ان يتعرض لهما بأذى[5]. وسعى الظاهر عيسى امير ماردين الى ان يحذو حذوهما بعد اذ لم ير جدوى انتظار نجدة المماليك الذين لم يتخذوا موقفا حاسما ازاء قوات تيمورلنك في ديار بكر، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب وذلك بارسال قوة عسكرية قوامها الف فارس هاجمت قوات تيمورلنك عند الرها واجبرتها على التراجع قليلا[6] ، وسوى وقوف قوات حلب وبعض القبائل التركمانية على الفرات لرصد حركات العدو[7].

جمع الظاهر عيسى حاشيته وقال : اني ذاهب الى هذا الرجل (تيمورلنك) ومظهر له الانقياد، فان ردني حسبما اريد فهو المراد، وان طالبني بالقلعة فامتنعوا انتم، واياكم ان تسلموها اليه او تعتمدوا على كلامه، وان خيركم بين تسليم القلعة وبين اتلافي فاختاروا الثانية، فانكم إن سلمتموها اليه خرجتم من باطنكم وظاهركم واتى بالهلاك على اولكم وآخركم، وخسرتم شعاركم وغبنتم انفسكم وديباركم. ومن ثم توجه الى تيمورلنك بعد ان استخلف على الحكم ابن اخيه الملك

---

(١) ابن الفرات : تاريخ ٣٤٣/٩.

(٢) العيني : عقد الجمان (مخطوطة ٦٥-٤٥٤) ، ابن تغري بردي ٤٣/١٢ ، ابن الفرات : تاريخ ٤٠٥/٩ ، وانظر ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوطة ، ص ٢١٦) .

(٣) انظر : المقريزي : السلوك (القسم المخطوط ٤١٦/٣).

(٤) نفسه ٤١٦/٣-٤١٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣٣٤/٦-٣٣٧.

(٥) ابن العماد : شذرات ٣٤٤/٦-٣٤٥ ، ابن خلدون : العبر ١١٧٥/٥-١١٧٦ ، ١٠٨٢-١٠٨٥، ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص ١٤٨ ، ابن عربشاه : الخبار تيمور ، ص ٤٧-٤٨.

(٦) ابن الفرات : تاريخ ٣٧٠/٩.

(٧) ابن خلدون : العبر ١٠٨٥/٥.

الصالح شهاب الدين احمد. ونزل يوم الاربعاء منتصف ربيع الاول (٧٩٦هـ) واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الهلالية. وسرعان ما قبض عليه تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة فأجابه " بان القلعة عند اربابها وبيد اصحابها وانا لا املك الا نفسي فقدمتها اليك وقدمت بها عليك فلا تحملني فوق طاقتي ". فأتى به تيمورلنك الى اسفل القلعة وطلب من اهلها تسليمها اليه فأبوا، فقدمه اليهم ليضرب عنقه او يستجيبوا لمطلبه فرفضوا، فطلب منه كي يطلق سراحه دفع مبلغ ستة ملايين درهم فضي وعدد من الهدايا يتقرب بها[١] ، ويبدو ان الظاهر لم يتمكن من الاستجابة لطلبه الاخير لذا ضيق عليه تيمورلنك في سجنه ومنعه عن الناس " ليذهب عنه ما به من قوة "[٢] ومن ثم راح تيمورلنك يتردد وقواته في انحاء ديار بكر والموصل يفسدون ويخربون. وفي جمادي الآخرة أمر قواته بالتوجه الى ماردين فتقدموا اليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة في الثاني عشر من الشهر المذكور وحاصروها فجراً[٣] وما لبثوا ان احلوا بها الدمار وتسلقوا اسوار المدينة من ثلاث جهات، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة وراحوا يفسدون ويخربون، وانسحب اهالي المدينة الى القلعة تحت حماية نبال الجند المدافعين، وبقي قسم منهم يقاتلون الاعداء. واستمر القتال حتى امتلات المدينة بالقتلى والجرحى، وعندما حل الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكروا تجاه المدينة واخذوا يعدون نفسهم لهجوم جديد لدى الفجر[٤].

قام علاء الدين الطنبغا نائب السلطنة بماردين وجماعة من الامراء بتعزيز التحصينات[٥]، وما ان طلع الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها الثاني ضد المدينة بشكل بشكل اشد واعنف، فخربوها وهدموا اسوارها وتمكنوا عقب الظهر من الاستيلاء على البلد، واستغلوا مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة، ووصلت الشائعات الى دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين فسيطر على الاهالي خوف شديد. وشدد المهاجمون حصارهم لقلعة ماردين وأبلى الطنبغا بلاءً حسنا في الدفاع وتمكن انصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك. ولما عجز هذا عن تحقيق هدفه فكر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة، فأرسل اليهم مع رسوله يقول : نعلم اهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين اننا قد عفونا عنهم

---

(١) ابن عربشاه : اخبار تيمورلنك ، ص ٤٨-٤٩.

(٢) نفسه ، ص ٤٩.

(٣) نفسه ، ص ٤٩ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢) ، ابن خلدون: العبر ١١٧٦/٥ ، ، ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص ١٤٨.

(٤) ابن عربشاه : اخبار تيمورلنك ، ص ٤٩-٥٠ ، ابن تغري : المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢).

(٥) ابن الفرات : تاريخ ٤٥٣/٩ ، العيني : عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦-١٣).

واعطيناهم الامان على نفوسهم ودمائهم، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الادعية. ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين. وقد ادى صمود القلعة وتناقص المؤونة واشتداد البرد الى اضطرار تيمورلنك لفك الحصار والعودة الى بلاده في ذي العقدة عام (٧٩٦م) بعد أن أعمل السيف والتخريب في مدينة آمد المجاورة رغم الامان الذي منحه سكان المدينة، وقد استصحب معه خلال عودته الملك الظاهر " بسوء نية " حيث اعتقله بمدينة سلطانية – مقر حكمه – مع اربعة من كبار امرائه وضيق عليه لكي يقطع وصول اي خبر عنه الى ماردين[١].

ما أن رحل تيمورلنك عن ماردين حتى ارسل نائبها الى سلطان المماليك في مصر يخبره عن اخفاق الهجوم التتري في تحقيق بغيته وعدم صحة الشائعات التي راجت حول سقوط ماردين، ففرح السلطان بذلك وخلع على رسوله[٢]. وهكذا استطاعت ماردين بما تتمتع به من حصانة، وبتضحية سلطانها الظاهر وإخلاص امرائها ان تصمد ازاء هجوم تيمورلنك وان تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة الفراتية ودون ان تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك.

سعى تيمورلنك الى استخدام وسيلة أخرى لاخضاع ماردين بعد ان اخفق في الاستيلاء عليها بالقوة، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى محتجزا لديه منذ عام ٧٩٦ هـ. ويصور المؤرخ ابن عربشاه الخطوات التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الغرض فيقول : مكث الظاهر سنة معتقلا لا يدري احد خبره. ثم وفدت الملكة الكبرى عليه وخففت عنه ما به من ضيق وسمحت له بمراسلة جماعته وحرضته على طلب الدخول في رضى تيمورلنك وطاعته، زاعمة انها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من مكائد تيمورلنك وبإشارته. وفي شعبان من عام (٧٩٨هـ) قام تيمورلنك باستدعاء الظاهر " باكرام تام وانشراح صدر وخاطر " ففكوا قيوده وقيود امرائه واظهروا له غاية التعظيم، وفي السابع عشر من رمضان دخل على تيمورلنك فتلقاه هذا بالاحترام وعانقه بحرارة واعتذر له عما فعله، واستضافه ستة ايام منعما عليه بعطاء جزيل " من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون الف دينار وستة جمال وخلع مزركشة ولواء يخفق على رأسه " كما اعطاه ستا وخمسين منشورا كل واحد منها بتولية بلد مما يحيط بماردين،

---

(١) ابن عربشاه أخبار تيمور ، ص ٥٠ ، ابن صعرى : الدرة المضيئة ، ص ١٥٨ ، الغياث : التاريخ الغياثي ص ٢٠٦-٢٠٧ ، ابن الفرات : تاريخ ٤٥٣/٩ ، العيني : عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦-١٢) ، ابن تغري البردي : المنهل الصافي-مخطوطة ٤٩٧/٢-٤٩٨) ابن خلدون : العبر ١١٧٦/٥-١٠٨٥ ، الرمزي : وقائع قزان وبلغار ٦١٣/١ ويخطئ. بوفا في الاشارة الى ان تيمورلنك استولى على ماردين في هذا الهجوم (دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ١٦٠/٦-١٦١).

(٢) ابن الفرات : تاريخ ٣٧٨/٩ ، العيني : عقد الجمان (مخطوطة ٤٦١/٦٥).

" وكل ذلك – يقول ابن عربشاه – من الدهاء والمكر " اذ كان هدفه ان يكون حكام تلك البلاد جميعا تحت طاعته يحملون اليه الخراج ولا يصدرون الا عن امره " ويعفى الظاهر عيسى فلا يحمل الى تيمورلنك ولا الى غيره شيء، وهذا وان كان في الظاهر كالاكرام فإنه فيما يؤول اليه وبال عليه وانتقام، وفيه كما ترى ما فيه من القاء العداوة بينه وبين مجاوريه "[1].

اشترط تيمورلنك على الظاهر، لقاء ذلك، ان يكون تحت حمايته وان يعول في كل اموره عليه، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية، وان يلبي دعوته بالقدوم اليه كلما طلبه، ويضرب السكة باسمه، وان يخلع طاعته لسلطان مصر وان يقوم بالقاء القبض على الملك علاء الدين الطنبغا فور دخول ماردين ويرسله اليه. فحلف له الظاهر على ذلك، ومن ثم عانقه تيمورلنك مودعا وأمر كبار امرائه بتشييعه، فغادر سلطانية في رمضان عام (٧٩٨هـ) وتوجه الى تبريز حيث اجتمع باميران شاه ابن تيمورلنك فزاد هذا في اكرامه وعطاياه وودعه وداعا حافلا. ومن ثم توجه الظاهر الى ديار بكر عن طريق ارمينية، وما ان وصل خبر قدومه حتى ابتهج الناس ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال، وخرج اهالي ماردين وامراؤها للاستقبال وعلى رأسهم ولي عهدهم الملك الصالح. فدخل المدينة وتوجه لزيارة أضرحة والده واجداده الماضين وعزم على التنازل عن منصبه والتوجه لقضاء بقية عمره في الحجاز ولكن الناس خاصتهم وعامتهم لم يتركوه " وتراموا عليه " وعند ذلك قرر البقاء في منصبه. وبلغ الطنبغا ان الظاهر يريد القبض عليه وارساله الى تيمورلنك فهرب الى مصر حيث انعم عليه السلطان المملوكي وعلى من معه وأمر لهم بالرواتب الضخمة[2].

بهذا الاسلوب استطاع تيمورلنك اخضاع الاراتقة في الوقت الذي عجز فيه عن تحقيق ذلك باستخدام القوة. وبتسلم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في اواخر عام (٧٩٨هـ) اتجهت العلاقات الخارجية للامارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه، فقد غدت خاضعة لتيمورلنك وكان عليها ان تخطب له وتضرب السكة باسمه وان يلبي أميرها دعوته كلما دعاه وان يخلع طاعة سلطان المماليك.

ولكن الاوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة كان الظاهر يتحين خلالها الفرص ويعد العدة لاعلان الثورة على السيطرة التترية. وواضح انه ارغم على قبول شروط تيمورلنك بسب الظروف السيئة التي مرت به خلال فترة اعتقاله ورغبته في التخلص من الاسر،

---

(١) ابن عربشاه : اخبار تيمور ، ص ٥١ وانظر ابن العماد : شذرات ٣٥٢/٦–٣٥٣.

(٢) ابن عربشاه : اخبار تيمور ، ص ٥١–٥٢ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢–٤٩٨)، ابن العماد : شذرات ٣٥٣/٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤٥٣/٩ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوطة ، ص ٢٢٣) ، العيني : عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦–١٢).

وقد اوضح المؤرخ ابن عربشاه انه حاول التنازل عن منصبه فور وصوله الى ماردين مما يشير الى انه لم يخضع كل الخضوع لاغراءات تيمورلنك وانه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعا للتر يأتمر باوامرهم. وفي الندوة الادبية التي عقدت إثر تسلمه المنصب وما قيل فيها من ابيات، ايحاء بمدى كراهيته لتيمورلنك ورغبته وحاشيته بزوال ملكه حتى لقد أنشأ احدهم، وهو الحسن بن طيفور :

طغى (تمر) واستاصل الناس ظلمه وشاعت له في الخافقين الكبائر

لقد زاد بغيا فافرحوا بزواله لأن على الباغي تدور الدوائر

ويبدو ان الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي سبقت عصيانه بسبب رغبته في التحرر من السلطة التترية من جهة، ولانشغال تيمورلنك عبر تلك السنوات بمشاكل مملكته الواسعة من جهة اخرى، ومن ثم اعاد الظاهر الخطبة للسلطان المملوكي في مصر، وفي عام (٨٠٢هـ) أتاحت الظروف لتيمورلنك اتخاذ اجراءات شديدة ضد ماردين بسب موقف اميرها المتردد تجاه السلطة التترية. فقد استدعي تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب عصيان عدد من الامراء جنوبي الاناضول، فتوجه الى هناك ثم عرج على ماردين حيث قامت قواته باعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب، ويظهر ان تيمورلنك تقدم خلال ذلك الى صاحب ماردين بمطاليب عديدة فجاهر الامير بالعصيان " لما كان قاساه من طاعة ذلك الغادر الذي ندم على اطلاقه ".

لم يشأ تيمورلنك الانشغال فترة طويلة بماردين، للعمل على اخضاع صاحبها وتأديبه، ولذا غادرها على ان يعود اليها بعد تصفية مشاكله وتنفيذ اهدافه الواسعة في الجهات الشمالية الغربية من عالم الاسلام. واستطاع في تلك الجولة ان يدمر ويستولي على عدد من المدن الاسلامية في آسيا الصغرى والشام وعلى رأسها حلب ودمشق، ثم كر عائدا في شعبان (٨٠٣هـ) الى ماردين بعد ان قوي مركزه اثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك. ونهبت قواته الرها لدى مرورهم بها، ومن ثم ارسل رسوله الى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة اعرب فيها عن شوقه الشديد للقائه !! فأبى الظاهر ان ينزل اليه ولم يستمع الى كلامه " ولا التفت اليه، فأنه كان قد آذاه اول مرة فما احتاج الى تجربة آخر مرة، وسلك معه بر السلامة "[١]، واكتفى بارسال خادم له ومعه الهدايا والخدم، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة امور منها تخوفه من غدره كما فعل في الحصار الاول عام (٧٩٦هـ)، فلم يلتفت تيمورلنك الى ذلك وتقدم على رأس قواته صوب ماردين، في رمضان، وأخذ يعد العدة للحصار. وكان سكان المدينة قد

---

(١) ابن عربشاه : اخبار تيمورلنك ، ص ١١٦.

استعدوا لذلك فأخلوا المدينة وانتقلوا الى القلعة التي تتميز بحصانتها الشديدة والتي تتمتع بموارد تموينية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي كثير الانهار والذي تنتشر فيه المزارع والمراعي[١].

شدد تيمورلنك الحصار على ماردين من شتى جهاتها وأخذ يتدارس مع قواته نقاط الضعف في امكانياتها الدفاعية، ولم يكن حواليها مكان للقتال ولا لنصب مجانيق، فعول تيمورلنك على القيام بمحاولات لثقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس، لفتح ثغرات فيها لتتمكن قواته من التسرب عبرها الى قلب القلعة. واستمرت عمليات النقب والهدم الى العشرين من رمضان دونما نتيجة، ولما ادرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخريب المدينة وتهديم اسوارها ومبانيها وجوامعها وقلع اشجارها " فمحا آثارها وفك اساسها واحجارها "[٢]، ومن ثم غادر ماردين متوجها الى بغداد وأخذ يعبث في طريقه بتلك المنطقة، فخرب نصيبين وفعل بها مافعله بشقيقتها ماردين[٣].

ترك تيمورلنك احد حلفائه التركمان وهو قرايلوك عثمان امير قبيلة (آق قوينلو) (الخروف الابيض) على حصار قلعة ماردين، بعد ان ولاه على آمد وبعض المواقع المجاورة في ديار بكر، وقد اضطر هذا الى الانسحاب هو الآخر بسبب مناعة قلعة ماردين من جهة، وعدم وجود المراعي الكافية لاطعام خيول القوات المهاجمة من جهة اخرى[٤].

وهكذا تمكنت ماردين من ان تثبت قدرتها الفذة على المقاومة بعد ان اعلنت العصيان على اقوى دولة في الشرق آنذاك، واستطاعت ان تقاوم حصارا تمكن اصحابه ان يكتحسوا بقواتهم الضخمة – خلال ذلك العام بالذات – معظم الجهات الغربية الوسطى من عالم الاسلام. الا ان الحصار العنيف كان قد الحق اضرارا بالغة بالامارة كما ألحق الدمار بمدينة ماردين ولم يسلم منه الا القلعة، وقد ترك قرايلوك عثمان المنطقة وقد تحولت الى خراب وغادرها عدد كبير من سكانها[٥]. ولم تستطع ماردين ان تنهض من كبوتها هذه المرة او تستعيد ازدهارها وعمرانها، خاصة وانه لم تكن هناك قوة اسلامية تحتمي بها هذه الامارة لتتجه بعد ذلك الى الاعمار والبناء كما كانت تفعل من قبل، اذ كان المماليك قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه ، ص١١٧ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢-٤٩٨) ، العيني : عقد الجمان (مخطوطة ١٤٠/٦٦).

(٣) ابن عربشاه : اخبار تيمورلنك ، ص ١١٧-١١٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٤٩٧/٢-٤٩٨.

(٤) الغياث : التاريخ الصافي (مخطوطة ، ص ٢١١) وانظر عربشاه : اخبار تيمورلنك ، ص ١١٨.

(٥) الغياث : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢-٤٩٨).

الشام لم يستطيعوا معها ان يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الاسلامية، وخصوصا في الشام والجزيرة والاناضول، فترة من الزمن.

مقارنات

من خلال القاء نظرة سريعة على عناصر الوحدة والتنوع في مقاومة المدن الثلاث ومن قبلها مدينة الرسول عليه السلام في غزوة الاحزاب. نلتقي بعدد من المؤشرات هذا بعضها.

اعتمدت المدن الثلاث على (الاسوار) في دفاعاتها وهو التقليد العسكري الذي كان سائدا يومها، ليس في الشرق الاسلامي او مغربه فحسب بل في العالم كله. أما المدينة فقد اعتمدت فكرة (الخندق) لمجابهة الموقف الخطير.

استندت كل من المدينة وماردين على قواهما البشرية الذاتية وجاءت (الريح) التي سلطها الله على معسكرات الوثنيين وفعلت فعلها فيهم، بمثابة اسناد خارجي. بينما سعت الموصل وحلب لطلب نجدة عسكرية من الخارج من اجل كسر الطوق، وإذ سحقت النجدة في الحالة الاولى فأنها تمكنت في الثانية من ان تحقق هدفها وترغم الغزاة على الانسحاب.

لعبت الازمات الاقتصادية دورها البالغ في حصار المدن الاربع، وهو أمر محتوم ازاء كل حرب حيث يستهدف المهاجمون اعتماد سلاح التخريب والتجويع لأرغام الخصم على الاستسلام، وفيما عدا الموصل فان المدن الثلاث الاخرى تمكنت من التفوق على الازمة بالايمان الواعي والتخطيط المدروس.

جرت حملات نفسية للتخذيل والدعوة الى الاستسلام وكان هذا واضحا في المدينة حيث ارجف المنافقون والذين في قلوبهم مرض وقاموا بحملاتهم النفسية المعروفة التي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرف كيف يلاحقها ويطفيء نارها الواحدة تلو الاخرى. كما جرى التخذيل نفسه في الموصل من قبل العديد من رجال البلد الذين الحوا على اميرها بالخروج معتقدين أن فيه خلاصهم، رغم تحذير الملك الصالح. اما في حلب فقد كان لتردد اميرها السابق حسام الدين تمرتاش وانهزاميته أثر سيء في الروح المعنوية لمقاتليها.

والى جانب هذا شهدت ساحات القتال في المدن الاربع اعمالا خيانية وكشفت نار الخوف وبريق المطامع عن رجال كانوا مستعدين للتنازل عن عقيدتهم وبيع اهليهم وبلادهم هروبا من عقاب رهيب او طمعا في ثواب قريب : المنافقون اياهم ويهود بني قريظة حلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) في محنة المدينة. دبيس بن صدقة ورفاقه من امراء شمالي الشام في ازمة حلب اولئك الذين زينوا للصليبيين فكرة الحصار. الزين الحافظي الذي تسبب في سحق النجدة المتوجهة للموصل وقادها الى الدمار. والملك المظفر الارتقي امير ماردين الذي صحب المغول في حصارهم للموصل او خارجها، فالامر سواء، وقد لعبت في كل الاحوال دورا خطيرا لصالح الاعداء.

هاجمت المدن الاربع قوى كانت تجد بسهولة من يحالفها لهذا الغرض او ذاك ويسير في ركابها. ولقد سميت غزوة الخندق بالاحزاب لان قريشا ويهود خيبر عرفا كيف يحركان الكثير من القبائل الوثنية ويحزبانها ضد الهدف المشترك. وفي حلب اسهم الى جانب الصليبيين عدد من الامراء المسلمين (الصغار) بقواتهم : دبيس بن صدقة المزيدي، سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى ابن سالم بن مالك العقيلي، وياغي سيان بن عبد الجبار الارتقي. اما في الموصل فقد انضاف للمغول المهاجمين عدد من الامراء كان ابرزهم المظفر الارتقي امير ديار بكر. واما في ماردين فقد اوصى تيمورلنك حلفاءه التركمان بقيادة قرايلوك عثمان بمواصلة مهمته في تدمير مقاومة المدينة وارغامها على الاستسلام.

تميز المهاجمون في كل الاحوال بنزعتهم التخريبية، وليس المقصود هنا السعي لتدمير قوى الخصم الاقتصادية، الامر الذي تبيحه ضرورات الحرب في معظم الاحيان، وانما المقصود هو انخفاض المستوى الحضاري للمهاجمين واقترابهم من البربرية بدرجة او اخرى، فهو صراع بين البربرية والتحضر. ومعروف المستوى المتدني لحشود الاعراب التي هاجمت مدينة الرسول (عليه السلام) يوم الاحزاب طمعا في ثمرها وتمرها. ومعروف – كذلك – مستوى التتار والتيموريين القادمين من مجاهل آسيا. اما الصليبيون فيكفي ان نلقي نظرة على سلوكهم (الهمجي) وتصرفاتهم البدائية عند اسوار حلب لكي ندرك مدى تدنيهم : لقد كانوا ينبشون قبور المسلمين ويسلبونهم اكفانهم. ويصنعون من توابيتهم آنية للطعام أما موقف ذلك الفرنجي من المصحف الشريف فهو صورة (كاريكاتيرية) مضحكة محزنة لذلك الغربي المتوحش وهو يسعى الى اطفاء نور الشرق وسراجه الوهاج.

لم تعط المدينة وحلب وماردين عددا يذكر من الضحايا، أما الموصل فقد قدمت آلافا من الشهداء حصدتهم سيوف المغول بعد دخولهم المدينة. ومن قبل كان المغول قد سحقوا النجدة التي قدمت من حلب بقيادة البرلي.

وإذ لم يمض على حصار المدينة سوى ثلاثة اسابيع حتى آل الى الاخفاق، فان حصار المدن الاخرى قد استغرق الاشهر الطوال، والسبب يرجع الى موقف طرفي الصراع والظروف التي اكتنفتهم. ففي غزوة الخندق كان المسلمون يقفون وراء قيادة رسولهم عليه السلام بكل ما تميزت به من صبر وتفان وايمان مطلق بالمصير. وكان يحاصرهم – في المقابل – حشود من القبائل كانت تفقد الدافع العميق للقتال وتفتقد، في الوقت نفسه، القيادة الموحدة والهدف المحدد، ثم جاءت ريح الله العاتية لكي تكون الضربة القاضية وترغم الغزاة على الانسحاب. أما في حالة المدن الثلاث الاخرى، فقد تميزت قيادة المهاجمين بوضوح الهدف وتحديده، وبالاصرار – ايضا – على الانتصار باي اسلوب ومهما يكن الثمن. هذا الى ان حروب الحصون والاسوار

تستغرق – في العادة – مدى زمنيا أطول بطبيعة الحال من ذلك الذي تستغرقه انماط الحروب الاخرى بسبب مناعة التحصين والقدرة بالتالي على المماطلة والتسويف.

غيرت معركة الخندق مجرى الصراع الاسلامي الوثني وقال الرسول عليه السلام قولته المشهورة : " الآن نغزوهم ولايغزوننا " لقد تحولت المبادرة الى ايدي المسلمين، وانتقلوا من مواقع الدفاع الى مراكز الهجوم وجاء صمود حلب ووحدتها مع الموصل بمثابة (بداية) او (نواة) لدولة اسلامية موحدة ازدادت قوة وتماسكا بمرور الوقت وتمكنت عبر العقود القادمة من توجيه ضربات حاسمة ضد الصليبيين. اما مقاومة الموصل وماردين فقد باءت اولاها بالفشل وانتهت الاخرى باستنزاف خطير لماردين، ومن ثم فلن نتوقع منها نتائج حاسمة بهذا الاتجاه او ذاك، ولكنهما استطاعتا – على الاقل – عرقلة حركة الغزاة وامتصاص اندفاعها واستنزاف طاقات العدو العسكرية، الامر الذي تبدت نتائجه على المدى البعيد.

وقبل هذا كله، وبعد هذا كله، يبقى عامل الايمان بالله ورسالته والاستماتة دون عقيدة الاسلام وأرضه. والتكوين (الجهادي) الذي صنعته – ولا تزال – عقيدة الاسلام عبر الاجيال، على مستوى القواعد والقيادات، يبقى العامل الاخطر والاكبر والاخطر في ترجيح موازين القوى وفي تمكين المسلمين عبر التاريخ من مجابهة خصومهم والتفوق عليهم في كثير من الاحيان مهما تباينت موازين القوى المنظورة واختلفت مستوياتها كما ونوعا. وتبقى المقولة الفرآنية خالدة دائمة تفعل فعلها على مدى التاريخ مهما تنوعت انماط السلاح وتغايرت خطط الحروب واساليبها ﴿ **فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[1]. ﴿ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2]. وصدق الله العظيم .

([1]) سورة الانفال ، (آية ٦٦).

([2]) سورة البقرة ، (آية ٢٤٩).

اهم المصادر

١- المخطوطة :

- **ابن تغري بردي : جمال الدين ابو المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤هـ).**

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (دار الكتب المصرية رقم ١١١٣).

- **ابن دقماق : صارم الدين بن ابراهيم بن ايدمر (ت ٨٠٩هـ).**

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢).

- **الغياث : عبدالله بن فتح الله البغدادي (كان حيا سنة ٨٩٠هـ).**

التأريخ الغياثي (مكتبة معهد الدراسات العليا الاسلامية-بغداد).

- **ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المصري (ت ٩٠٧هـ).**

تأريخ الدول والملوك (دار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧).

- **المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).**

السلوك لمعرفة دول الملوك (دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤).

٢- المطبوعة :

- **ابن الاثير : عز الدين بن علي الجزري (ت ٦٣٠هـ).**

الكامل في التاريخ، دار الطباعة، القاهرة-١٢٩٠هـ.

- **ابن اياس : محمد بن احمد الحنفي المصري (٩٣٠هـ).**

بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الاميرية، القاهرة ، ١٣١١هـ.

- **ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة.**

دار الكتب المصرية، القاهرة-١٩٢٩-١٩٥٦(سلسلة تراثنا).

- **ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ).**

العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت-١٩٥٦-١٩٥٩.

- **رشيد الدين : فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨هـ).**

جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت ورفاقه، دار احياء الكتب العربية، القاهرة-١٩٦٠ (عن الطبعة التي نشرها كاترمير).

- **الرمزي : م. القيصري (ت ١١٣٠هـ).**

تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمية والحسينية، أورنبورغ-١٣٢٥هـ.

- **ابن الشحنة : محمد الحلبي المصري (ت٩٢١هـ).**

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٩.

- **ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ).**

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، قسم حلب، تحقيق دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق-١٩٥٣.

- **ابن صصرى : محمد بن محمد (كان حيا فيما بعد ٨٠٠هـ).**

الدرة المضية في الدولة الظاهرية، تحقيق : د. وليم. م. برنر، جامعة كاليفورنيا-١٩٦٣.

- **ابن العبري : غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ).**

تايخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت-١٩٨٠.

- **ابن العديم : كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ).**

زبدة حلب من تأريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي دمشق-١٩٥٤.

- **ابن عربشاه : شهاب الدين احمد الدمشقي (ت ٨٥٤هـ).**

عجائب المقدور في اخبار تيمور،المطبعة العثمانية، القاهرة ١٣٠٥هـ.

- **ابن العماد : عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ).**

شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مكتبة المقدسي، القاهرة ١٣٥٠هـ.

- **الغزي : كامل بن حسين بالي (١٢٧١هـ).**

نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب-١٣٤٢هـ.

- **ابو الفدا : عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ).**

المختصر في اخبار البشر،دار الطباعة الشاهانية، القسطنطينية-١٢٨٦هـ.

- **ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق.**

المطبعة الاميركانية، بيروت-١٩٤٢.

- **ابن القلانسي : ابو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).**

ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء، بيروت ١٩٠٨.

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك،

تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة-١٩٣٦.

- **ابن منقذ : اسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ).**

كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون-١٩٣٠.

- **اليونيني : موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ).**

ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر الدكن-٩٥٤-١٩٦١.

محاولات انقلابية في تأريخنا
(١)

شهد تاريخنا الاسلامي محاولات انقلابية عديدة للعودة بالحياة إلى الصيغ التي أرادها الله ورسوله، ولتنظيم اطرها ومعطياتها على ضوء القرآن والسنة وكان بعض تلك المحاولات شاملا متكاملا سعى إلى تنظيم الحياة في كافة مجالاتها تنظيما اسلاميا خالصا ورفض كل نشاط أو عمل أو ممارسة تشذ عن اسس هذا التنظيم ومبادئه. وكان بعضها الآخر جزئيا محدودا استهدف تنفيذ هذا الجانب او ذاك من بنية الاسلام وتغيير هذه الناحية أو تلك بما ينسجم وعقيدة الاسلام في دائرة السياسة، أو المعاملات، أو المال، أو الاخلاق. إلى آخره.

وقد نجح العديد من تلك المحاولات واخفقت محاولات اخرى لاسباب عديدة ترجع ولا ريب إلى الطرائق والاساليب التي اعتمدتها المحاولة، أو إلى البيئة التاريخية التي نفذت فيها.

وقد جاءت دراستي عن تجربتي عمر بن عبد العزيز[١] ونور الدين محمود[٢] محاولة لرصد وتحليل اثنين من الانقلابات الشاملة في تاريخنا الاسلامي، استطاعا ان يحققا نجاحا منقطع النظير على كافة المستويات، وقد دل نجاحهما الباهر رغم تباين الزمان على امكانية تنفيذ (التجربة) في اية فترة تاريخية تتوفر عبرها الشروط التي توفرت في محاولتي عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود " لقد علمتنا تجربة عمر بن عبد العزيز اكثر الحقائق اهمية في تاريخ البشرية عموما وتاريخ المسلمين خصوصا، تلك هي ان الانقلاب الذي احدثه عمر في هذه الفترة القصيرة، في حياة الناس واهدافهم واهتماماتهم، وفي ميادين العمل جميعا، سياسة وحربا، ادارة واجتماعا واقتصادا، وتربية وتثقيفا، والنجاح العظيم الذي حققه هذا الانقلاب في شتى ابعاده، إزاء ظروف صعبة معقدة، وركام عقود طويلة من السنين، انحرفت بكثير من المفاهيم والقيم والمباديء الاسلامية، واحدثت فصلا وثنائية بدرجة أو اخرى، بين عقيدة الاسلام وشريعته وبين الواقع الذي يعيشه الناس. ان تمكن عمر من اعادة التوحد بين الشريعة والواقع، وربط اجهزة الدولة جميعا بالاطارات التي رسمها القرآن والسنة، وتوجيه حياة الناس ومعطياتهم وفق ما يريده الله ورسوله. هذا النجاح يشير بوضوح إلى امكان تنفيذ البرنامج الاسلامي، وتطبيق شرائع الاسلام وعقائدياته على واقع الحياة، في اية فترة يمكن ان يستلم فيها السلطان رجال يمتلكون الذكاء والحصافة والمرونة، إلى جانب الايمان العميق والتقوى الدائبة التي تشد اعينهم ابدا إلى

---

(١) ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية ، بيروت–١٩٧٠.

(٢) نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دار القلم ، دمشق–١٩٨٠.

القيم العليا التي جاءوا ليحققوها والى المخاطر التي تهدد هذه القيم والاهداف. التقوى التي تقضي على رغائبهم الخاصة ومطامحهم الشخصية، وتوجه طاقاتهم جميعا كي تصب في المحيط الواسع الذي يذيب كل العقبات، ويهدم كل السدود التي تسعى للوقوف ازاء العودة بالحياة والاحياء إلى طريق الله. تلك هي الحقيقة الكبرى التي علمتنا اياها الرحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، ذلك الذي قاد ثورة اسلامية ضد اوضاع شاذة في مختلف الجبهات، وتمكن بذكائه وحصافته ومرونته وايمانه وتقواه من احراز النصر العظيم "[١].

أما تجربة نور الدين محمود " فيما يمكن تسميته باطمئنان : اقامة الحكم الاسلامي في دولته، فإنها تأتي شاهدا تاريخيا آخر على ان الاسلام كعقيدة (أيديولوجية) قدير في اية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والايمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على التماس مع واقع الحركة التاريخية وصياغتها، أو اعادة صياغتها، على ضوء معطيات الاسلام (كتابا) و(سنة) واجتهادا ورصيدا تشريعيا، وعلى ان الجماهير الاسلامية مهما صدت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها، فانها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم والتناغم العميق مع هذا الدين الذي كرمها الله ورسوله به، والذي لن تجد معه في أي (بديل) قد يجيء من هنا أو يأتى به من هناك الا التغرب والتمزق والانقطاع.

" انها جماهير قرون الالتزام الطويلة ليس مع عقيدة كالعقائد تحمل (الخرافة) التي تسقط بها في بدء الطريق، أو (العتمة المادية) التي تظل معها في منتصف الطريق، ولكنها عقيدة المنطق البشري والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدها. انها لن تجد ما تضيعه هناك : العقل أو الروح أو الجسد. ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ما ضيعتها اذ تفرقت بها السبل، العودة التي كانت تتحقق كفعل تاريخي من خلال بروز تحد خارجي أو داخلي خطير أو في اعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة. العودة التي كانت تخرج بها دوما من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام "[٢].

(٢)

واريد في هذا العرض الموجز ان اتحدث عن اثنتين من المحاولات (الجزئية) لتنفيذ قيم الاسلام ومعاييره في جانب ما من جوانب الحياة الاجتماعية أو السياسية : ملاحقة ظاهرة تعاطي الخمر والمفاسد الاجتماعية والقضاء عليها، وتنفيذ الحكم بالشورى.

---

(١) ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ص ٢٠١-٢٠٢ (الطبعة الخامسة).

(٢) نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، ص ٥-٦.

صحيح ان الاسلام يرفض الترقيع، وان (التجربة) إما ان تكون اسلامية كاملة أو لا تكون. وان من التناقض وغير المنطقي ان ينظم جانب من الحياة تنظيما اسلاميا وتنطلق الجوانب الاخرى وفق تصور جاهلي. وان الحكم بما انزل الله ليس مسألة اختيارية ولا امرا انتقائيا وانما هو الزام بالتنفيذ الكلي الكامل لشريعة الله في واقع الحياة. وصحيح أيضاً ان تنفيذ أية جزئية اسلامية في الواقع لن يتيح لها الاستمرار والدوام لانها تقوم على غير اساس عميق وتتحرك وتنمو في غير ارضيتها الطبيعية ورحمها الحقيقي ، وبالتالي فسرعان ما تتعرض للضمور والتيبس والزوال، أو للانكسار والتفتت بسبب ضغوط تفوق قدرتها على التحمل والاستمرار.

صحيح هذا أو ذاك. ولكننا نريد ان نعرض هنا لما وقع فعلا. اذ ان البحث التاريخي لا يتحدث عما يجب ان يكون وانما عما هو كائن فعلا. واذا كانت تجربتا عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود قد حققتا تطابقا باهرا بين ما هو كائن وبين ما يجب ان يكون، فإن المحاولات الجزئية بعدت بدرجة أو باخرى عن تحقيق هذا الهدف للاسباب التي عرضنا لها قبل قليل.

ومهما يكن من امر فان محاولات كهذه تفرض التقدير والاحترام ما دام ان وراءها نية حسنة تسعى إلى تنفيذ ما تقدر على تنفيذه من قيم الاسلام وموازينه، فانما الاعمال بالنيات، كما يقول رسولنا (عليه السلام) ، وانما لكل امريء ما نوى.

ومن يدري فلعل الكثير من الجوانب الاخرى للحياة كانت تتحرك يومها وتتخلق وفق المنظور الاسلامي ، وان المحاولة جرت في هذا الجانب أو ذاك لانه كان يبدو ظاهر الغرابة والشذوذ، أو لانه بلغ حدا من التورم اقتضى استئصاله قبل ان يسري بالوباء إلى الجوانب الاخرى.

(٣)

كان ذلك في عام تسع وسبعمائة للهجرة، في عهد السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس المنصوري. بدأت المحاولة من قبل نائب السلطنة في بلاد الشام، فلما ورد البريد الى مصر بذلك ارتاح له السلطان وعزم على ان يفعل مثل ذلك بديار مصر وندب للمهمة الامير سيف الدين الشيخي، وأمره بالا يراعي احداً مهما كانت منزلته، والا يدع بيتا بمصر والقاهرة من بيوت اعلى الناس وادناهم يبلغه ان فيه خمرا الا ويكبه ويكسر ما فيه، وكان الشيخي يتميز بالشدة والقوة، فبدأ مهمته بان طلب من والي القاهرة ومقدميها وخفرائها ان يجتمعوا به وسألهم عن مواضع الخمر فلم يجيبوه، وأخفوا سائر المواضع، فضرب جماعة منهم بالمقارع فدلوه على اسماء صناع

الخمر وخزنتها، فكتب هذه الاسماء، وكان من بينها عدد من الامراء والكتاب والاجناد والتجار، وبدأ حملة كبس البيوت، فكان الرجل لا يشعر الا والشيخي يدهم بيته بصحبة ثلة من المماليك ومعه النجارون والبناءون لتفقد مطامير الخمر تحت الارض وإخراجها فإذا ظفر بها كسر سائر ما فيها.

نزل بشاربي الخمر من جراء هذه الحملة بلاء شديد، وافتضح كثير من المستورين واخذ الناس يدل يعضهم على بعض، بعد ان لوحت لهم عصا السلطة الغليظة حيث يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وكبست أيضاً دور اليهود والنصارى وأريق ما فيها من الخمور. وتعدى الامر ذلك إلى دور الامراء فكبست بيوت من عرف بشرب الخمر منهم، فأزال الله بذلك فسادا كبيرا، وكادت الحملة تحقق اهدافها لولا ما داخلها احيانا من فوضى استغلها جماعة من الناس من الاهالي والاجناد فنهبوا عددا من الدور والاموال ووقع من الضير ما دفع عددا من كبار الامراء إلى التجمع والتوجه إلى السلطان بايقاف الحملة فاستجاب السلطان لهم[1] خشية ان يتسع الخرق وان تمتد الفوضى. ولا ريب ان المحاولة لو اتيح لها قدر اكبر من الانضباط والتنظيم، والحق بها عدد اكبر من الجند يمنعون الفوضى ويضربون على ايدي نهازي الفرص، لمضت إلى غايتها وحققت نجاحا طيبا بعد اذ تهيا لها امير تميز بالقوة، عادل لا يفرق بين مسلم وذمي، ولا بين فقير وامير. ومن يدري فلعل في الامراء انفسهم، ممن تضررت مصالحهم وضيق على شهواتهم، من دفع حشود الناس لاستغلال الفرصة والقيام بالسلب والنهب كي يفتحوا على حملة الغاء الخمر ثغرة يتسللون منها لاقناع السلطان بالكف عن المضي فيها!

لم تكن هذه المحاولة هي الاولى والاخيرة، فقد سبقتها محاولات واعقبتها اخرى وكان ابرزها تلك الحملات التي شهدتها مصر والشام في ايام السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون، منها على سبيل المثال ما حدث عام (٧٢٠هـ) حيث وصل الخبر إلى مصر بان السلطان المغولي في العراق وبلاد فارس : أبا سعيد خربندا قد اصدر اوامره بإراقة الخمور في سائر مملكته وقتل من وجدت الخمر في بيته ثانية بعد اراقتها، وكان هذا الاجراء ضمن حملة شاملة سعى السلطان ابو سعيد خلالها إلى تنفيذ سلسلة من الاصلاحات الاجتماعية حيث ابطل بيوت الفواحش ، وأبعد ارباب الملاهي، وأغلق الحانات، وأبطل المكوس، ورفع شهادة الاسلام، ونشر العدل، وعمر المساجد والجوامع. ويبدو ان سلطان مصر وجد نفسه مضطرا الى اعلان الحملة نفسها في بلاده وإلا تعرض لنقمة الناس وعرض مركزه للاهتزاز بعد الاجراءات التي اتخذها خصمه المغولي الامر الذي يفسر لنا اقتصار الحملة على بلاد الشام بابطال ضمان الخمارات واراقة الخمور، وغلق الخانات واستتابة اهل الفواحش. فنفذ ذلك في سائر مدن البلاد الشامية

([1]) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزء ٢ ، قسم ١ ، ص ٥٣-٥٤ (تحقيق : د. مصطفى زيادة).

وضياعها وجبالها، واجتهد النواب في إزالة صنوف المنكر حتى طهر الله منها ومن اهلها البلاد[١].

وبعد ثلاث سنوات، بدأ والي الاسكندرية الجديد (الامير بكتمر الحسامي) حكمه باراقة الخمور في المدينة ومنع بيعها، وعين جماعة من النقباء يتولون الاشراف على الحملة لقاء اجور يومية، كما قام الامير بحمل الناس على الامور الشرعية، فحاول المتضررون منهم افشال الحملة فاستخفوا به، وطمعوا فيه وكثر فسادهم، لكنه عرف كيف يعتمدالشدة لمعالجة الموقف ويتخذ من العقوبات ما يوقفهم عند حدهم ويرغمهم على الطاعة. فكان الرجل إذا شكى يجبى منه من مائتي درهم إلى ما دونها، واذا الح في الاعتراض والافساد تعرض للضرب. وشهدت ساحات الاسكندرية ضرب عدد من هؤلاء المفسدين فخضع له الجميع[٢].

وفي العام التالي قلده والي القاهرة الامير سيف الدين قدادار الذي بدأ حكمه هو الآخر باراقة الخمور ومنع تعاطيها، واعتمد الشدة في التنفيذ فعظمت مهابته[٣].

هذا ما يعرضه المؤرخ المصري المقريزي في مدى زمني لا يتجاوز العقدين. محاولات عديدة ومنظمة لمطاردة الفاحشة في المجتمع الاسلامي، وبخاصة ظاهرة تفشي الخمر، والسعي للقضاء عليها. ولا ريب اننا لو تابعنا مسيرة التاريخ الاسلامي عبر طريقه الطويل فسوف نلتقي بمحاولات اخرى في هذا الاتجاه تتجاوز العشرات إلى المئات.

(٤)

إلى جانب هذه المحاولات التي استهدفت الاصلاح الاخلاقي أو الاجتماعي بصفة عامة، شهد التاريخ الاسلامي محاولات انقلابية جزئية في مجالات الحياة الاخرى السياسية والاقتصادية والتشريعية. إلى آخره، مما يشكل مجالا خصبا للدراسة التاريخية التي تستهدف آفاقا جديدة في البحث، وكلنا يعرف على سبيل المثال المحاولات التي قام بها عدد من الخلفاء عبر التاريخ الاسلامي للانقلاب على النظام الوراثي واعادتها شورى بين المسلمين جميعا ولكن هذه المحاولات آلت الى الاخفاق لانها كانت تجابه تحديات فوق الطاقة. انما نجحت التجربة الشورية التي اقامها الوزير الاندلسي الشهير ابو الحزم جهور بن محمد عام (٤٢٢هـ) لأنها جاءت في اعقاب ضعف الخلافة الاموية وتهافتها وعدم قدرتها على ضبط الامور ومجابهة المشاكل والاستجابة للتحديات. يقول محمد عبدالله عنان في كتابه (دول الطوائف) متحدثا عن هذه التجربة:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١١.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٦.

" اجمع القرطبيون في اواخر عام (٤٢٢هـ) على التخلص نهائيا من بني امية وكان عميدهم ورائدهم في ذلك ابو الحزم جهور، وكان هذا الوزير القوي النابه يستأثر، نظرا لماضيه التالد ورفيع مكانته ووفرة حزمه ونضجه، بمحبة الشعب وثقته وتأييده، وغدت قرطبة على أثرذلك دون خلافة أو حكومة. وكانت الانظار كلها تتطلع إلى ذلك الزعيم ليتولى الحكم وتدبير الامور في تلك الآونة العصيبة. وهكذا اختير ابن جهور، باجماع الرأي، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة. والقى نفسه، بعد ان اجمع الشعب على اختياره، رئيسا لحكومة قرطبة الجديدة التي تبسط عنوانها على رقعة متوسطة من الاندلس. لكنه لم ينفرد بالرئاسة ولم يستأثر بتدبير الامور والبت فيها، انما جمع حوله صفوة الزعماء والقادة يتحدث باسمهم أو باسم (الجماعة) ويرجع اليهم في الامور ويصدر القرارات باسمهم، فاذا طلب منهم مال أو مضاء امر قال ليس لي عطاء ولا منع، انما هو (للجماعة) وانا امينهم، واذا رابه امر عظيم أو اعتزم تدبير مسالة خطيرة استدعاهم وشاورهم، واذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا ان يكون باسم الوزراء. وقرن ابن جهور ذلك كله باجراء بارع آخر هو انه لم يفارق رسم الوزارة ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء ولم يتخذ أي اجراء يبرز رياسته أو يحيط نفسه باي مظهر من مظاهر الابهة والفخامة بل لبث على سابق عهده من التواضع والقناعة وخفض الجناح ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى.

" وقد عرفت هذه الحكومة الفريدة في صحف التاريخ الاسلامي (بحكومة الجماعة). وكانت نموذجا بديعا من حكم الشورى. في عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفريدة والحكم المطلق. وسلك ابن جهور في حكومته مسلك الاصالة والحزم، وكان اول همه ان يقلع الشغب وان يوطد دعائم النظام والامن فصانع زعماء البربر واستمالهم بالرفق وخفض الجناح فحصل على محبتهم وسلمهم، وجعل اهل الاسواق جندا وفرق السلاح فيهم وفي البيوت حتى إذا دهم امر في الليل أو النهار، استطاع اهل المدينة الدفاع عن انفسهم . وأصلح القضاء، وعمل على حفظ العدالة بين الناس، وقضى على كل مظاهر البذخ والاسراف، وخفّف اعباء المكوس، وعمل على حفظ الاموال العامة ولا سيما الاموال السلطانية حيث عهد بتحصيلها وحفظها إلى رجال ثقات يشرف عليهم بنفسه، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة، ومن ذلك انه فرق الاموال على التجار لتكون بيدهم دينا عليهم يستغلون ويحصلون على ربحها فقط، وتحفظ لديهم، ويحاسبون عليها من وقت لآخر. وكان من نتائج هذه الاجراءات ان حل الرخاء مكان الكساد وازدهرت الاسواق وتحسنت الاسعار ونمت الموارد.

" واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة ابي الحزم جهور تدير الامور في قرطبة واراضيها زهاء اثنتي عشرة عاما، وقد سادت بها السكينة والدعة والامن، وجهور لا يتحول عن سياسته والشعب القرطبي يؤيده بطاعته ومحبته فضلا عن ان قرطبة غدت في ايامه ملاذ

الزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين. وفي عام (٤٣٥هـ-١٠٤٤م) توفي الرئيس ابو الحزم جهور وقرطبة رافلة في حلل السلم والرخاء فخلفه في السياسة ابنه ابو الوليد محمد، فحاول في البداية ان يقتفي سياسة ابيه، وأقر الحكام وأرباب المراتب في مناصبهم. لكنه ما لبث بعد حين ان تنكب عن هذه السياسة فقدم على الناس ولده عبد الملك واخذ عليهم العهد له، فاساء عبد الملك السيرة واستبد بالسلطة وأفسح المجال للاوغاد واهل الشئون ولهث وراء المظاهر الفارغة فبدأت عوامل الفساد تدب إلى جهاز الحكم. واخذ الشعب القرطبي عن آل جهور كل ذلك والرئيس أبو الوليد ملتزم داره لشلل اقعده. وفي عام (٤٦٢هـ) تمكنت قواد بني عباد في اشبيلية من اقتحام قرطبة في اعقاب اتفاق مع عدد من زعماء قرطبة الناقمين، وتم اعتقال عبد الملك وابيه وسائر بني جهور ونفوا إلى احدى الجزر البعيدة وانتهت بذلك دولة بني جهور في قرطبة بعد ان بدأت تلك البداية النموذجية الطيبة. "[1].

(٥)

ومهما يكن من امر فيجب الا يخط على البال بان المحاولات الانقلابية بصيغها الشاملة والجزئية، كانت من عمل السلطة وحدها، اي القيادة السياسية والتشريعية متمثلة بهذا الخليفة او السلطان ذاك، وبهذه المجموعة او تلك من الرجال الذين يتربعون قمة الهرم الاداري. وان القيادة وحدها هي التي كانت تخطط للانقلاب وتنفذه في واقع الحياة.

صحيح ان انقلابات القمة كانت تسندها وتمكن لها، في كثير من الاحيان، اجهزة الدولة وامكاناتها المادية والادبية. ولكننا يتوجب ان نمد رؤيتنا الى الاقطاب الاخرى التي شاركت في هذا النمط من الفعل التاريخي، وهما قيادة المعارضة، والجماهير، فما اكثر الحركات الانقلابية والثورات التي قادها الثوار والمعارضون الذين كانوا يقارعون السلطة رافعين خلالها شعاراتهم الاسلامية، طارحين برنامجا اسلاميا في حالة النجاح واستلام السلطة. ومن ثم فان كل المحاولات الثورية التي شهدها التاريخ الاسلامي، وما اكثرها، والتي كانت تستهدف ضرب انحراف السلطة او تقويمه. انما ترفد هذا التيار الذي نتحدث عنه : الانقلاب من اجل تحقيق حياة اسلامية خالصة، وهو تيار له ثقله الكبير وحجمه الواسع الذي يغطي مساحات من تاريخنا ممتدة في الزمان والمكان متوغلة في الفكر والوجدان.

أما الجماهير الاسلامية فكان دورها ضربة لازب في مجرى هذه الانقلابات سواء قام بها من يحكم أو من يحكم (بضم الياء)، وهو دور كبير لا يتمثل في الاتباع فحسب بل يتجاوز هذا

([1]) مقتطفات من الصفحات ٢٠-٣٠ من كتاب (دول الطوائف) وهو الجزء الثالث من كتاب (دولة الاسلام في الاندلس) ، الطبعة الاولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة-١٩٨٠.

الموقف إلى المشاركة في الحركة، وتعزيزها وحمايتها في حالة النجاح وفرض الرقابة التي يصعب معها ايجاد اية ثغرة قد يتسرب منها الفساد والدمار. ثم ان الجماهير نفسها هي ميدان (الاختبار) والالتزام والتنفيذ وبقدر ما تكون على استعداد لتقبل اهداف المحاولة وتمثلها بقدر ما يكتب لها النجاح والتوفيق. وانه لمن فضول القول التأكيد على فكرة انه ما من حركة أو محاولة في التاريخ الاسلامي وغير الاسلامي الا وكانت تعتمد على اذرع الجماهير وايمانها جنباً إلى جنب مع عقل القيادة وتخطيطها.

ومرة أخرى فان البحث في المحاولات الانقلابية عبر تأريخنا الاسلامي يشكل مجالا خصبا للدراسة التاريخية، ويمنح القناعات المدعمة بالوقائع على ان هذا الدين ما جاء لكي يتحرك في الفراغ كما يريد له اصحاب نظرية الفصل بين الدين والدولة. وعلى ان اتباعه المخلصين، سواء كانوا في القيادة أو في صفوف الجماهير. في القمة أم في القاعدة، ما كان يغمض لهم جفن وهم يرون مجرى الحياة، يتخلق ويتحرك وفق صيغ لم يأذن بها الله ورسوله. ومن ثم كان ذلك السعي الذي ضحي في سبيله بالمال والجهد والدم، ومنح الغالي والرخيص.

وهل بعد تحقيق الوفاق المرتجى بين كلمة الله وحركة الانسان في العالم من هدف يستحق ان يضحى من اجله ؟ !

شيء عن جاهلية العرب

(١)

كثر الحديث في العقود الاخيرة عن العصر الجاهلي وتبلور في اتجاهين، احدهما يؤكد (الجاهلية) ويمدها إلى كافة الانشطة والاتجاهات في حياة العرب القديمة، ويصل بهم إلى الحضيض الادنى، والآخر يندفع في طريق مضاد فينفي الجاهلية ابتداء ويسعى إلى ان يبريء العرب منها، ويجعل منهم امة متحضرة وليس من الصواب وصفها بالجاهلية. ويرتقي بهم صعدا صوب القمم العليا.

ويحار الانسان للوهلة الاولى. أي الاتجاهين يأخذ وايهما يرفض، وهما نقيضان تماما كل منهما ينطلق في طريق، ولقاؤهما مستحيل.

لكن التمعن في المسألة سرعان ما يكشف عن خطأ كلا الموقفين، ويبين كم ان الرؤية احادية الجانب تمثل خطيئة بحق البحث التاريخي الجاد. واننا إذا اردنا ان نقترب اكثر من الحقيقة فانه يتوجب علينا ان نعتمد منهجا متكاملا ونستند إلى رؤية شمولية تضع في الحسبان كافة الجوانب، وشتى المكونات.

ولسنا هنا بصدد نقد وتفنيد معطيات الموقف الاول، فقد كتب فيه الكثير حتى كاد هذا الموقف ان يختفي لكي ينفرد في الساحة الموقف الثاني الذي يقول بألا جاهلية على الاطلاق. ومن ثم سيكون مدار الحديث.

(٢)

ما الذي يقوله كتاب الله ؟

ان القرآن الكريم وهو يتحدث عن هذا العصر يحسم الامر بآياته البينات. اننا نقرأ **﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾**[١]. ونقرأ **﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾**[٢].

إنه التمزق اذن. التمزق السياسي والفكري والاجتماعي، وليس ثمة ما هو الحق بالتخلف والجاهلية من التمزق الذي مد جناحه المشئوم على كافة المساحات والذي حفر من الخنادق

---

(١) سورة ال عمران ، (الآية ١٠٣).

(٢) سورة الانفال ، (الآية ٦٣).

والشقوق ما جعل من (المستحيل) تأريخيا، وبالجهد البشري وحده، تجاوز المحنة وتحقيق أي نمط من (الوحدة) بين العرب على الاطلاق.

انه حتى الدولة العربية التي حاولت ان تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة، انحلت قبيل ظهور الاسلام، واصبح النظام القبلي هو السائد لا في الصحراء فحسب، بل حتى في اغلب المدن الموجودة في اطراف الجزيرة[1]. لقد كانت القبيلة تعتبر نفسها مستقلة، استقلالا تاما، وفي حالة حرب مغ غيرها، يباح لها ولافرادها ان تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير. فالغزو امر طبيعي وقانوني عندهم ودوافعه متعددة. منها الحاجة : فان اجداب الجزيرة العربية واخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة فتضطر الى الغزو لتنهب من القبائل الاخرى اموالها ومواشيها. وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة، أو قد يكون نتيجة عامل شخصي كأن يكون رئيس القبيلة حاقدا على قبيلة اخرى لسبب من الاسباب. وقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب اسماء عدد غير قليل من هذه الحروب أو (ايام العرب) كما كانت تدعى، وقد ادت هذه الحروب إلى حدوث حالة من القلق في الجزيرة، كما ان النهب والاسر الذي يصحبها كان يؤدي إلى عدم الاستقرار[2].

وعن (الندوي) نلخص هذه المؤشرات عن التمزق القبلي والاجتماعي الذي كان يحكم الحياة العربية ويأخذ بخناقها.

كانت العصبية القبلية شديدة جامحة، وكانت تقوم على مبدأ (انصر اخاك ظالما أو مظلوما) فكان افراد القبيلة الواحدة يتناصرون ظالمين أو مظلومين، ولذا كانت الحرب والغزو والنهب من الامور التي ميزت الحياة العربية الجاهلية، حتى غدت الحرب من القضايا التي يتلهون بها فقال قائلهم :

واحيانـــا علـــى بكـــر اخينـــا إذا لـــم نجـــد الا اخانـــا

وكانت الحروب تثور لأتفه الاسباب، فقد وقعت الحرب مثلا بين بكر وتغلب ومكثت اربعين سنة اريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك الا لان احد افراد القبيلتين ضرب عنق ناقة تدعى البسوس تعود للقبيلة الاخرى فاختلط لبنها بدمها واشتعلت الحرب بين القبيلتين وبلغت حدا وصفها فيه احد ابناء القبيلتين قائلا " قد فني الحيّان، وثكلت الامهات، ويتم الاولاد. دموع لا ترقأ واجساد لا تدفن ". كذلك حرب داحس والغبراء اشتعلت بسبب مسابقة وقعت في سباق للخيل ،

---

(1) د. صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، جزء ١ ، ص١٠٤ (مطبعة دار المعارف ، بغداد– ١٩٥٥).

(2) نفسه ، ص ١٣٨–١٣٩.

وتلا ذلك قتل ثم اخذ بالثار ونصر كل قبيلة لابنائها، ومن ثم اسر ونزوح وقتل اطاح برؤوس الوف من الناس[١].

وقد غدت الحياة العربية لهذه الاسباب عبارة عن سلسلة من الاحقاد والثارات والرغبة في الانتقام اوصى بها الآباء الابناء. وقد حملت العيشة البدوية والجهل وقلة اسباب الحياة والطمع والجشع والاستهانة بحياة الانسان، على الفتك والسلب والنهب، حتى افتقد الامن والاستقرار نهائيا، وغدا العربي لا يدري متى يغتال واين ينهب، وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم في القوافل، حتى احتاجت الدول الكبرى كالفرس والروم الى تشديد حراستهم للقوافل التجارية المارة ببلاد العرب[٢].

وكان المجتمع العربي يعاني من تمزق على مستوى آخر، كسائر شعوب الارض يومها. طبقية قاسية وظلم اجتماعي واستعباد من القوي للضعيف ومن الغني للفقير ومن السيد للعبد. فكانت هناك في بلاد العرب طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلا على غيرها وامتيازا عنهم، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة وحتى في بعض مناسك الحج. وتتقدم عليهم في المناسبات الدينية، كما كانت تتلاعب بالمقدسات الدينية في سبيل تحقيق مصالحها الخاصة وحمايتها وابرز دليل على ذلك هو (النسيء) أي تغيير مواعيد الاشهر الحرم حماية للتجارة. وكان النفوذ والمناصب العليا من الامور المتوارثة. اما الطبقات الاخرى من السوقة والعوام فكانوا مسوقين لخدمة اسيادهم ومستغليهم[٣].

(٣)

وجعفر بن ابي طالب (رضي الله عنه) هاجر إلى الحبشة مع اخوانه، يجيب النجاشي وهو يسأله عن سبب مفارقتهم قومهم : " ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الارحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا. "[٤].

---

(١) انظر بالتفصيل ، ص ٦١-٦٢ من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). (الطبعة الخامسة ، مكتبة دار العروبة ، (القاهرة-١٩٦٤م).

(٢) نفسه ، ص ٦٢.

(٣) نفسه ، ص ٦١.

(٤) ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٧٣-٧٥ (تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية ، القاهرة-١٩٦٤) ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢/٢٣-٢٤ (تحقيق : محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف-١٩٦٤).

إن الرجل يقول بلسانه، وهو ادرى بطبيعة العصر الذي كان يعيشه " كنا قوم اهل جاهلية ". لا يكتفي بهذا بل يعدد (المساويء) والممارسات التي كانت تدمغ العصر وتنسحب على كافة مساحات الحياة الدينية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية. ولم يكن جعفر بدويا ممن تترب ثيابه رمال الصحراء كان واحدا من ابناء مكة. زهرة مدائن الشمال وأشدها تحضرا.

وغير جعفر (رضي الله عنه) كثيرون من شهود العيان. ولنتذكر ما كان يقوله سفراء الجيوش الاسلامية الفاتحة لقادة الفرس واكاسرتهم، ومنها – على سبيل المثال لا الحصر – قول المغيرة بن شعبة يخاطب الكسرى " ايها الملك انك قد وصفتنا صفة لم تكن عالما بها. فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان اسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يشبهه جوع. كنا نأكل الخنافس والعقارب والحيات فنرى في ذلك طعامنا قبل اليوم على ما ذكرت فبعث الله الينا رجلا معروفا. كان خيرنا واصدقنا واعلمنا، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو امر الله ".

إن التاريخ، أو الفعل الحضاري، لا يتجزأ. وما يقوله البعض من ان العرب كانوا جاهليين في معتقدهم متحضرين في نواحي الحياة الاخرى. امر مردود فالجماعة البشرية عندما تعاني (الانتكاسة) في جانب ما من وجودها، ينسحب الامر بالضرورة على الجوانب الاخرى.

ان التجربة التاريخية كيان واحد، فاذا ضرب المرض جانبا منه تداعت له سائر الجوانب بالسهر والالم والحمى. اننا نجد في النصوص التي استعرضناها تفككا وتخلفا ليس على المستوى الديني فحسب بل على كافة المستويات الاجتماعية والاخلاقية والسياسية. وسيتأكد هذا من خلال المزيد من الشواهد التي ستعرض لها.

اننا إذا ما تذكرنا ان الدين أو العقيدة هو القاعدة التي تنبثق عنها – في معظم الاحيان – كافة مناحي النشاط البشري، فتتكون من عجينتها وتتلون بمنازعها، ادركنا كيف تكون جاهلية العرب امتداداً محتوما لعقيدتهم الوثنية المترعة بالسخافات والضلالات والاوهام، باتجاه مناشطهم وممارساتهم كافة.

(٤)

ماذا كان يحدث ؟

الوقائع كثيرة. والروايات التاريخية غنية بالتفاصيل. وحيثما التفتنا وجدنا الضلال يمد رواقه المعتم على حياة العرب يومها. اننا لن نعرف قيمة الشعار الذي رفعه الفاتحون بوجه العالم، ولن تكون جزيرة العرب سوى جزء من العالم " جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام ". لن نعرف

قيمة هذا الشعار قبل لن ندلف إلى يوميات العصر الجاهلي نفسه لنعاين بعض ما كان يحدث هناك.

يقول ابن الكلبي في كتابه المعروف (الاصنام) ". كان الذي سلخ – بالمكيين – إلى عبادة الاوثان والحجارة انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة. فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة. ثم سلخ بهم إلى ان عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره، فعبدوا الاوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الامم من قبلهم "[١]. وحدث وان اصيب عمرو بن لحي – الذي يلي امر الكعبة – بمرض شديد " فقيل له : ان بالبلقاء من الشام حمة ان اتيتها برأت، فاتاها فاستحم بها فبرأ. ووجد اهلها يعبدون الاصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ونستنصر على العدو فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا. فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة "[٢].

ومن يومها والاصنام تزداد في اروقة مكة واطرافها بمرور الوقت، والاوثان تتكاثر والخرافات التي جعلت من الحجارة آلهة تعبد ويتقرب بها إلى الله. تنتشر وتمتد وتتشابك لكي ما تلبث ان تغطي حياة العربي كلها في عبادته وعمله. في ليله ونهاره. في صحوته ومنامه.

ويروح ابن الكلبي يحكي لنا عن الاصنام التي اتخذها العرب آلهة. سواع. ود. يغوث. نسر. مناة. اللات. العزى. هبل. اساف ونائلة. مناف. ذو الخلصة. ذو الكفين. ذو الشرى. الاقيصر. فهم. رائم. سعير. الفلس. سعد. اليعبوب. باجر. عميانس. وعشرات. بل مئات اخرى من الاصنام والاوثان لم تكن منشرة في الصحراء وحدها، بل على العكس كانت المدن الاكثر تقدما هي الساحات التي تعج بها وتزدحم. وحول كل صنم أو وثن حشد من الخرافات والاوهام والاضاليل تراكمت وتشابكت كما تتشابك خيوط العنكبوت في الاماكن المهجورة. ولا يبخل علينا ابن الكلبي بهذه الترهات.

كان إساف يتعشق نائلة في ارض اليمن، فاقبلوا حجاجا، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس، وخلوة في البيت، ففجر بها هناك، فمسخا، فاصبحوا فوجدوهما مسخين، فاخرجوهما موضعهما، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب[٣].

وكانت الاوس والخزرج ومن يأخذ مأخذهم من عرب يثرب وغيرها يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فاذا نفروا اتوا مناة (على ساحل البحر الاحمر) فحلقوا

---

(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كتاب الاصنام ، ص ٦ ، (تحقيق : احمد زكي ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة–١٩٢٤).

(٢) نفسه ، ص ٨.

(٣) نفسه ، ص ٩.

رؤوسهم عنده واقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك[1] والاوس والخزرج قبيلتان يثربيتان متمدنتان وليستا من البدو الذين يضربون في رمال الصحراء. واوس والخزرج ممن هداهما الله إلى الاسلام – فيما بعد – واعز بهما دينه ونصر بهما رسوله (صلى الله عليه وسلم). فليس ما يقوله البعض من ان الدين القويم لا ينبت في النفوس الملتوية والعقول الضالة، وانه ما دام ان الاسلام قد قام بين العرب فهم – بالضرورة – ليسوا جاهليين!!

وكان هبل في جوف الكعبة، قدامه سبعة اقدح، مكتوب في اولها (صريح) والاخر (ملصق) فاذا شكوا في مولود اهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح الحقوه، وان خرج ملصق دفعوه. وقدح على الميت وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على أي شيء كانت. فاذا اختصموا في امر اوارادوا سفرا أو عملا، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهو اليه[2]. كأن ليست لهم عقول تهديهم إلى ما يفعلون ولا ارادة حرة تمكنهم من فعل ما يختارون. وكأن الشك في صحة انساب ابنائهم كان هو القاعدة، واليقين هو الشذوذ، ولذا كانوا يلجأون للاقداح علها تقطع شكهم باليقين.

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به، واذا قدم من سفر كان اول مايصنع إذا دخل منزله ان يتمسح به أيضاً !![3]. وكان لقضاعة ولخم وجذام واهل الشام صنم يقال له الاقيصر فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده. فكان كلما حلق رجل عنده رأسه القى مع كل شعرة قبضة من دقيق[4]. وكان مالك ابن حارثة يبعث به ابوه باللبن إلى ود ويقول : اسقه الهك !! يقول مالك : فاشربه !! ثم رايت خالد بن الوليد – بعد – كسره فجعله جذاذا!![5] وهو يذكرنا بتلك القبيلة من بني حنيفة التي كانت اذا جاعت أكلت إلهها المصنوع من التمر.

" واستهترت العرب في عبادة الاصنام – يقول ابن الكلبي – فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما. ومن لم يقدر ولا على بناء بيت، نصب حجرا امام الحرم وامام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الانصاب فإذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والاوثان وسموا طوافهم الدوار. فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ اربعة احجار فنظر إلى احسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاثا اثافي لقدره ، واذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك

---

(1) نفسه ، ص ١٤.

(2) نفسه ، ص ٢٨.

(3) نفسه ، ص ٣٣.

(4) نفسه ، ص ٤٨.

(5) نفسه ، ص ٥٥.

فكانوا يذبحون وينحرون عند كلها ويتقربون اليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون اليها، وكان الذين يفعلون من ذلك في اسفارهم انما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها "[1].

(٥)

فماذا عن الممارسات الاجتماعية والاخلاقية ؟

لا ريب انها ستتسرب في خلايا الحياة العربية وتنتشر في جسدها انتشار الدم في الشرايين. فما دامت قاعدة التصور مهتزة بهذا الشكل المريع، تحمل هذا القدر الكبير من الجهل بقوانين الحياة وحركة الكون وهدف الانسان في العالم، فان ما يتمخض عنها سيكون مهزوزا هو الاخر، تسوده الفوضى وانعدام الموازين وانفلات القيم. يقينا.

إن القرآن الكريم يحدثنا كثيرا عن هذه الممارسات، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقف عندها طويلا. وشعراء الجاهلية انفسهم يحكون عنها ويتغنون بها. اما المؤرخون القدماء فقد نقلوا عنها حشودا من الروايات والاخبار.

ان اثباتها تحصيل حاصل كما يقول المثل لانها غدت، باعتراف العرب انفسهم، من المسلمات. اما نفيها فهو امر مستحيل. وما دام الحال كذلك فانه من غير المعقول ومن غير التاريخي كذلك ان نمنح انفسنا – بالمجان – تصورا عن العصر هو غير ما كان يشهده العصر نفسه ويجري في اوردته وشرايينه.

كان التجار يبحثون عن الربح وفق رؤية منفعية صرفة كالذي يشهده الغرب اليوم، دونما أي اعتبار للقيم والضوابط الخلقية وكانوا يجدون في الاقتراض ذي الفوائد العالية بابا طيبا للربح المنشود حتى ليتجاوز احيانا المائة بالمائة في نهاية كل عام " وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار باشنع الاوصاف فقالوا ان التجار هم الفجار "[2]. فلا نستغرب ان يشن القرآن الكريم حملاته المتوعدة على هذا الصنف من التعامل الاقتصادي **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**[3]. **﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ**

---

(1) نفسه ، ص ٣٣.

(2) العلي : محاضرات ، ص ٥٨.

(3) سورة آل عمران ، (آية ١٣١).

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1]. **﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾**[2].

وكانوا يئدون البنات – إذا اقتضى الامر – لهذا السبب أو ذاك، ويغتاظون لولادتهن **﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾**[3]. **﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾**[4].

يروي الميداني ان الوأد كان منتشرا في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الاسلام وقد قل الا في بني تميم فانه تزايد فيهم قبيل الاسلام، رغم ان جد الفرزدق بذل مجهودا في ابطاله حيث كان يشتري البنات اللاتي يريد اهلهن وأدهن. ويقول السكري بانه اشترى اربعمائة واربعة جواري لافتدائهن من الوأد. ويذكر القرطبي ان الوأد كان في مضر وخزاعة وقد تردد ذكر الوأد في القرآن إلى درجة توحي انه كان مألوفا في الحجاز[5]. ويقول الندوي بان عملية الوأد كانت تتم بقسوة بالغة في معظم الاحيان، فقد يتأخر وأد الموؤودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها الا وقد كبرت وصارت تعقل وقد حكوا في ذلك عن انفسهم قصصا مبكية، وكان بعضهم يلقي بالانثى من مكان شاهق[6].

وكان الزنا منتشرا، وقد مر بنا قبل قليل كيف كان الآباء يلجأون إلى الاقداح كلما رزقوا بولد للتأكد من انه من ظهورهم ولقطع الشكوك التي تحوم حول الاصول. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في عديد من الآيات[7] واشار اليه المؤرخون القدماء في اكثر من موضع.

والراجح انه كان يكثر في الاسواق والمدن كمكة والطائف وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها، والراجح ان اصل معظمهن من الجواري العبيد وينسب ولد البغي عادة إلى امه،

---

(1) سورة البقرة ، (آية ٢٧٥).

(2) سورة الروم ، (آية ٣٩).

(3) سورة النحل ، (آية ٥٧–٥٩).

(4) سورة الزخرف ، (آية ١٧) وانظر سورة الممتحنة ، (آية ١٢) ، التكوير ، (الآيتان ٨–٩) ، الانعام ، (الآيات ١٣٦، ١٤٠، ١٥٠) ، (الاسراء ، (آية ٣١).

(5) العلي : محاضرات ، ص ١١٨–١١٩.

(6) ماذا خسر العالم ، ص ٦٠–٦١.

(7) انظر سورة الاسراء ، (آية ٣٢) ، النور ، (آلايتين ٢–٣) ، الممتحنة ، (آية ١٢)، الفرقان ، (آية ٦٨) ، النساء ، (آية ١٥ ، ١٩) ، الاحزاب ، (آية ٣٠) ، الطلاق ، (آية ١) ، الاعراف ، (آية ٢٨) ، البقرة ، (آية ١٩٦ ، ٢٦٨) ، الانعام ، (آية ٣٣ ، ١٥١) ، المائدة ، (آية ٥) ، النساء ، (الآيتين ٢٤–٢٥).

ولكنه قد ينسب إلى من تختاره امه ممن اتصل بها[1] ويرتبط بالزنا ذلك الزواج الشاذ الذي عرفته الجاهلية وسمي باسم زواج الرهط، حيث يشترك عدة رجال بزوجة واحدة. وقد حدثنا البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) موضحا طبيعة هذا الزواج " ان يجتمع الرجال ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ومرت ليال بعد ان تضع حملها، ارسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم ان يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذي من امركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من احبت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع ان يمتنع منه الرجل[2].

وعموما، فقد كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة للغبن والحيف، تؤكل حقوقها وتبتز اموالها وتحرم ارثها، وتمنع بعد الطلاق، أو وفاة الزوج من الزواج ثانية واختيار زوج ترضاه وكانت المرأة تورث كما يورث المتاع والدواب ويتصرف وارثها بها كما يتصرف بالاشياء دون ان يكون لها حرية اختيار الحياة التي تريد. كما ان العرب كثيرا ما يطففون الكيل مع النساء ويستولون على مهورهن، وقد تركزت كل الحقوق الزوجية إلى جانب الرجل ومنعت منها المرأة. وكان يسوغ للرجل ان يتزوج ما يشاء من النساء دون تحديد. ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الاناث[3].

أما الخمر فقد غدا لانتشاره وشيوعه إلفا وعادة بل جاوز الامر ذلك إلى ان يكون من المآثر التي يفخر بها العربي ويتغنى بادمانها ويقرنها بالكرم والسخاء.

وما زال تشرابي الخمور للذة وبذلي وانفاقي طريفي ومتلدي

ونقرأ في كتاب الندوي كيف كان شرب الخمور والادمان عليه واسع الشيوع بين العرب شديد الرسوخ فيهم، وكيف كان الشعراء يتحدثون عن معاقرتها والاجتماع على شربها وكيف انها شغلت جانبا كبيرا من شعرهم وتاريخهم وادبهم وكثرت اسماؤها وصفاتها في لغتهم كثرة تدعو إلى العجب وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما يرفرف عليها علم يسمى غاية. وكان من شيوع تجارة الخمر ان اصبحت كلمة تجارة مرادفة لبيع الخمر. وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية كذلك، وكان عدم المشاركة في مجالسه يعد عارا، وكان الرجل في الجاهلية يقامر – احيانا – على اهله وماله فيقعد حزينا سليبا عندما ينظر إلى امواله وقد غدت في يد خصمه مما كان يورث بينهم العداوة والبغضاء[4].

---

(1) العلي : محاضرات ، ص ١٣٠.

(2) البخاري : كتاب النكاح ، الباب الخامس عشر.

(3) الندوي : ماذا خسر العالم ، ص ٥٩–٦٠.

(4) نفسه ، ص ٥٦–٥٧.

(٦)

وما هي الا نماذج لما كان يجري يومها من ممارسات تدمغ العصر بالجاهلية. ان الفكر والروح كان مطموسا عليهما. والحاسة الاخلاقية كانت تتأرجح بين السلب والايجاب. اما الحس فقد تمرغ في الشهوات واللذائذ حتى النخاع : فلم يبق الا ثمة هزة قوية توقظ النائمين من غفوتهم وتخرج بهم من ظلمات الجاهلية وضيقها إلى نور الاسلام ورحابة العالم والكون على مداهما.

إن القول بجاهلية العرب قبل الاسلام لا يمثل تناقضا مع اختيارهم لحمل راية الدين الجديد، فان فيهم من وراء ظلام الاضاليل والاوهام معدن اصيل، وان الفجر لينبثق لحظة يدلهم ظلام الليل ويبلغ مداه.

ولقد جاء الاسلام لكي يحقق المعجزة فيخرج بالعرب، وبالناس جميعا من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام.

عين جالوت
الواقعة والمغزى
الاعصار

في منتصف عام (٦٥٨هـ-١٢٦٠م) بعث هولاكو من الشام برسله يحملون رسالته المشهورة إلى سلطان مصر الملوكي : سيف الدين قطز.

كان هولاكو في قمة انتصاراته. وكان المغول قد اكتسحوا القوى الاسلامية واحدة بعد الاخرى وهدموا متاريسها وجدرانها وسووا الطريق امام جحافلهم المتقدمة غربا. ما من قيادة اسلامية، من اواسط آسيا وحتى اطراف سيناء الا واذعنت لهم طوعا أو كرها. وكان السيف الوثني المغولي يعلو على السيوف وكان الراس الذي لا ينحني له يطاح به في التو واللحظة. وحتى اولئك الذين اختاروا السلامة ولووا رؤوسهم عجزاً عن المجابهة وهروبا من الموت. وقعوا في مصيدة الموت التي كان المغول يتفننون في نصبها وفي تعذيب خصومهم وهم يتقلبون في شباكها.

والذي حدث في بغداد معروف. ومعروف أيضاً المصير المفجع الذي آلت اليه اكبر قوتين اسلاميتين في الشرق الاوسط : الخوارزميون في بلاد فارس وما وراء النهر والعباسيون في العراق.

سنوات عديدة والمطاردات الرهيبة لا تفتر بين المغول وبين السلطان الخوارزمي الاخير جلال الدين منكبرتي. وصراع الحياة والموت يعرض مشاهده الدامية في مساحات واسعة من الارض شهدت جهات ما وراء النهر وشمالي الهند وبحر قزوين وشمالي العراق والجزيرة الفراتية والاناضول بعضا منها.

وعبثا حاول السلطان ان يتصل بالامراء المحليين من رفاقه المسلمين في سبيل تشكيل جبهة اسلامية موحدة لمقاومة السيل الزاحف. لانه – هو – عبر سنوات طويلة كان قد مارس خطيئة التمزيق والتفتيت واشعال نار الخصومة والعداء بين القيادات الاسلامية بعضها ضد بعض. واخيرا استسلم لليأس، وتخلف عنه الكثير من انصاره، ووجد نفسه في قلة من اصحابه، وحيدا، غريبا، مطاردا في جبال ديار بكر. ويذكر معاصروه كيف ان البكاء كان يغلب عليه في الليل والنهار، وكيف انه هرب إلى الخمر علّه يختبيء وراء غيبوبتها من شبح النهاية القريب. وما لبث احد سكان المنطقة ان طعنه بسكين وقضى عليه.

واما العباسيون فامرهم معروف. وما شهدته بغداد حاضرة المسلمين الكبرى، غدا مثلا يضرب على مداولة الايام بين الناس !!

ولكن ما شأن الامارات المحلية ؟.

لم يكن مصيرها – بطبيعة الحال – باحسن من مصير دول الاسلام الكبرى، بعضها هادن ونافق ودعا إلى السلم وهو في مواقع الضعف والهوان، فلم ينجه ذلك من سيوف المغول، وبعضها الآخر وقف الوقفة التي تقتضيها كرامة المسلم وهو يواجه تسلط الوثنية، فحصدته سيوف المغيرين حصدا ولقي من صنوف الاذى ما يشير إلى بشاعة الطرائق التي استخدمها المغول لالقاء الرعب في قلوب الخصوم. قُتل الكامل الايوبي امير ميافيارقين في ديار بكر شر قتلة، اذ كان المغول يقطعون لحمه قطعا ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا راسه وحملوه على رمح وطافوا به في بلاد الشام، وكان يتقدم الموكب مغنون وطبالون واخيرا علق في شبكة بسور احد ابواب دمشق ويقال انه بقي هناك حتى تحرير المدينة من قبضة الغزاة.

ووضع الملك الصالح امير الموصل في دهن ولباد والقي في الشمس حتى تحول إلى ديدان بعد اسبوع، فشرعت الديدان تاكل جسده حتى مات على تلك الصورة البشعة بعد شهر. اما ابنه الذي كان طفلا في الثالثة من عمره فشقوه نصفين وعلقوه على ساحل دجلة على مرأى من الناس.

وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارع لا تقل شناعة وبؤسا.

وما جرى في مدن الجزيرة الفراتية وشمالي الشام يعد واحدا مما شهدته الكثير من المدن والامارات على مدى الشرق الاسلامي كله.

فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام ؟

والمؤرخ ابن الاثير المتوفى عام (٦٣٠هـ) وهو يستعرض وقائع عام (٦١٧هـ) ويسطر بدايات خروج المغول إلى بلاد الاسلام يتحدث بالهول الذي الم بعالم الاسلام، وقد كان في مطالعه يومها. فماذا لو طال العمر بالمؤرخ المذكور وشهد العقود التالية. ومآسيها ؟!

يقول الرجل : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحاثة استعظاما لها كارها لذكرها، فانا اقدم رجلا وأؤخر اخرى فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت امي لم تلدني، وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا. الا انه حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وانا متوقف ثم رايت ان ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الايام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل : ان العالم منذ ان خلق الله سبحانه وتعالى آدم، والى الان، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني اسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها اضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ؟ فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى ان ينقرض العالم وتفنى الدنيا. انهم لم يبقوا على احد، بل قتلوا الرجال والنساء والاطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فإنّا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ".

الانكسار من الداخل

كان الهجوم المغولي السريع الكاسح قد منح هؤلاء المغيرين سلاحا نفسيا خطيرا : الرعب الذي كان ينقض على خصومهم من الداخل فيهزمهم قبل ان تلتمع السيوف امام عيونهم. انه السيف الاكثر حدة والذي كان يذبح فيهم القدرة على الحركة. لقد كان المسلمون يومها، يعانون من شلل تام أو نصفي افقدهم الارجل التي يسيرون عليها والايدي التي يضربون بها. وهذه الوقائع التي يرويها ابن الاثير تكاد تكون تجسيدا (كاريكاتيريا) مضحكا محزنا للامر الذي آل اليه الكثيرون من ابناء عالم الاسلام.

يقول الرجل : " لقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي القى الله (سبحانه وتعالى) في قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ولا يتجاسر احد ان يمد يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني ان انسانا منهم اخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له : ضع رأسك على الارض ولا تبرح ومضى التتري التتري فاحضر سيفا وقتله به !! وحكى لي رجل قال : كنت انا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً فشرع اصحابي يفعلون ما امرهم. فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا نخاف !! فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فو الله ما جسر احد ان يفعل، فاخذت سكينا فقتلته، وهربنا فنجونا " !!

التحدي

في هذه الظروف السياسية والنفسية، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دما واصداء المعارك التي اثار نقعها سيل لا اول له ولا آخر من خيول الغزاة، بعث هولاكو برسالته تلك إلى سلطان مصر المملوكي : سيف الدين قطز. وكأن الطاغية كان يعرف جيدا خلفية الرعب والانهزام التي رسمتها العقود الاخيرة على مدى خارطة عالم الاسلام وفي اعماق نفوس ابنائه، فعرف كيف ينتقي كلماتها. قال " من ملك الملوك شرقا وغربا، القان الاعظم. باسمك اللهم باسط الارض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز وسائر امراء دولته واهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال، انا نحن جند الله في ارضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، واسلموا الينا امركم قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ.وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الارض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب. فاي ارض تأويكم ؟ واي طريق ينجيكم ؟ واي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع. فمن طلب حربنا ندم ومن طلب امماننا سلم، فان انتم لشرطنا ولامرنا اطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وان خالفتم هلكتم فلا تهلكوا نفوسكم بايديكم فقد حذر من انذر. فلا تطلبوا الخطاب واسرعوا في رد الجواب قبل ان تضرب الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا باعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد انصفناكم اذ راسلناكم، وايقظناكم اذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم ".

فمن اختار الجهاد يصحبني

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة اسلامية وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الاسلام وحضارته التي صنعها كدح القرون الطوال.

كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والاذعان لضروراته. ولكن الايمان له منطق آخر. انه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام فحسب، لكنه يهب بصيرة نافذة تخترق حجب العمى والظلام لكي تطل على الافق الذي يشع ضياء.

وبالحركة القديرة والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته فتخرج منها ظافرة وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق.

قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى الامراء ليعرض الامر عليهم. وجرى هذا الحوار.

قطز : ماذا ترتأون ؟

ناصر الدين قيمري : ان هولاكو، فضلا عن انه حفيد جنكيزخان، فان شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان، وان البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الان ، فلو ذهبنا اليه نطلب الامان فليس في ذلك عيب وعار !! ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، امران بعيدان عن حكم العقل !! انه ليس الانسان الذي يطمأن اليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فأنه قتل فجأة الخليفة وعددا من الامراء بعد ان اعطاهم العهد والميثاق. فاذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل !!

قطز : والحالة هذه فان كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، واصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خرابا يبابا وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل. فلو اننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خرابا كغيرها من البلاد، وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحدا من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فامر متعذر، ذلك لانه لا يمكن ان نجد مفراً الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة.

قيمري : وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم اذ انه لا يوثق بعهودهم !

عدد من الامراء :- ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقضيه رايك.

قطز :- ان الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا إلى القتال، فاذا ظفرنا فهو المراد والا فلن نكون ملومين امام الخلق.

الظاهر بيبرس :– ارى ان نقتل الرسل ونقصد كتبغا – قائد المغول – متضامنين فان انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين.

أيد الامراء المجتمعون كافة هذا الرأي. وكان على قطز ان يتخذ قراره. وقد اتخذه فعلا. قتل الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة اياما، ورفع رأسه متحديا بمواجهة الطاغية، واصدر اوامره بالتجهز للقتال (جهادا في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم) واذ رأى ترددا وجبنا ونكوصا من عدد من الامراء القى كلمته المؤثرة (يا أمراء المسلمين !! لكم زمان تأكلون اموال بيت المال، وانتم للغزاة كارهون. وانا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فان الله مطلع علي، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين).

وما كان للامراء جميعا وازاء قيادة مؤمنة كهذه، الا ان يخلعوا رداء العجز والوهن ومحبة الدنيا. ويقفوا متحدين بمواجهة الفتنة التي ان لم تدفع بالدم فانها لن تكتفي بضرب الذين ظلموا منهم خاصة !!

اليوم الفصل

انطلقت القوات الاسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكة الطريق المحاذي للبحر وتولى الظاهر بيبريس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة (بايدار) الذي ارسل القائد المغولي (كتبغا) الذي انابه هولاكو للتوجه غربا يخطره بحركة الجيش الاسلامي غير ان المسلمين اكتسحوا عساكره قبل ان تصل اليه النجدة.

كان كتبغا في بعلبك فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الاردن بعد ان يتجاوز بحر الجليل، غير انه منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وانصارها من النصارى المحليين حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لاعادة الامر إلى نصابه، وفي تلك الاثناء كان قطز يواصل السير إلى الساحل الفلسطيني ثم انعطف إلى الداخل ومضى شمالا لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وان تقدم إلى فلسطين.

عبر كتبغا نهر الاردن متوجها صوب الجليل الشرقي فبادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي مجتازا الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان المصادف الثاني من ايلول عام (١٢٦٠م) إلى عين جالوت. وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمنية، دون ان يعلم ان جيش المماليك اضحى قريبا منه. وكان قطز يعرف جيدا تفوق جيشه في العدد على العدو ولذا اخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو الا المقدمة التي قادها بيبرس. وما لبث كتبغا ان وقع في الفخ. اذ حمل بكل رجاله على القوات الاسلامية التي شهدها امامه، فاسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد ان اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي باسره ان جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم ، ولم تنقض سوى ساعات حتى بدا تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية ووقع قائدهم نفسه اسيرا، وباسره انتهت المعركة، اذ جرى حمله مقيدا بالاغلال إلى السلطان حيث احتز رأسه !!

توجه السلطان قطز إلى دمشق بعد ايام قلائل من المعركة حيث استقبل استقبال الابطال وهرب نواب المغول منها بعد اكثر من سبعة اشهر من خضوعها لسيطرتهم وقام قائده الظاهر بيبرس بملاحقة فلول العدو شمالا وتطهير البلاد منهم، حيث قتل واسر عددا كبيرا، وتمكن خلال شهر واحد من دخول حلب، المعقل الشمالي، وتخليصه من قبضة الغزاة. وهكذا تم تحرير بلاد الشام وفلسطين من اقصاها إلى اقصاها. ومع ان هولاكو ارسل العساكر لاسترداد حلب فانهم اضطروا إلى الانسحاب بعد اربعين يوما اجروا اثنائها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقاما لمصرع كتبغا، غير ان ذلك كان كل ما استطاع هولاكو ان يفعله للانتقام لقائده الشهير.

لقطات من المعركة

تقدم الملك مظفر قطز إلى سائر الولاة بازعاج الاجناد في الخروج للسفر ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع !! فلما كان الليل ركب السلطان وحرك اعلامه وقال : انا القى التتار بنفسي، فلما راى الامراء مسير السلطان ساروا على كره !!

أقسم المظفر لقادة الصليبيين انه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد اذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل ان يلقى التتر !!

أمر الملك المظفر بالامراء فجمعوا، وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع باهل الاقاليم من القتل والسبي والحريق ، وخوفهم من وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الاسلام والمسلمين، وحذرهم من عقوبة الله. فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد.

عندما اصطدم المعسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقص طرف منه فالقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن راسه إلى الارض وصرخ باعلى صوته " وإسلاماه " وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فايده الله بنصره.

مر العسكر في اثر التتر إلى قرب بيسان فرجع التتر، والتقوا بالمسلمين لقاءا ثانيا اعظم من الاول، فهزمهم الله وقتل اكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديدا فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول " وا اسلاماه " ثلاث مرات : " يا الله انصر عبدك قطز على التتار " فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الارض وقبلها، وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت ايديهم بالمغائم !!

كتب السلطان إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله وخذلانه التتر وهو اول كتاب ورد منه إلى دمشق. فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورا كثيرا وبادروا إلى دور النصارى الذين كانوا من اعوان التتر فنهبوها وخربوا ما قدروا على تخريبه، وقتلوا عدة من النصارى، واستتر باقيهم، وذلك انهمفي مدة استيلاء التتار هموا مرارا بالثورة على المسلمين وضربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، واعلنوا بضرب الناقوس وركبوا بالصليب وشربوا الخمر بالطرقات ورشوه على المسلمين!!

لما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا، عظم عليه، فانه لم يكسر له عسكر قبل ذلك.

واتم الملك المظفر السير بالعساكر حتى وصل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لا ستيلائهم

على معظم بلاد الاسلام، ولانهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر إلى الشام. وفي يوم دخوله إلى دمشق امر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا. وانشد بعض الشعراء :

هلـــك الكفـــر فـــي الشـــام جميعـــا واســـتجد اســـلام بعـــد دحوضـــه

بالمليـــــك المظفـــــر الملـــــك الار وع ســـيف الاســـلام عنـــد نهوضـــه

ملـــــك جاءنـــــا بعـــــزم وحـــــزم فاعتززنـــــا بســـــحره وببيضـــــه

اوجـــــب الله شـــــكر ذاك علينـــــا دائمـــــا مثـــــل واجبـــــات فروضـــــة

الارقام التي يريدها الله

فليس من المبالغة القول بان عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية والسياسية والعقيدية والحضارية عموما.

ها هنا في قلب فلسطين وبعد ما يقرب من مضي قرن على معركة حطين الفاصلة اجرى التاريخ نزالا لا يقل حسما بين قوتين متقابلتين : الاسلام والوثنية، التحضر والجاهلية، الالتزام بالقيم والانفلات منها. وكان انتصار المسلمين يعني انتصار الاسلام على الوثنية والتحضر على الجاهلية والقيم على الانفلات. ومؤشرات الثقة بالنفس والايمان بالنصر والقدرة على تجاوز الهزائم والنكسات والتي كادت تصل بالمسلمين إلى نقطة الصفر. جاءت هذه المعركة المباركة لكي ترتفع بها ثانية صوب الارقام التي تليق بمكانة المسلمين في العالم.

وها هنا – أيضاً – نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل الا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل : الاخذ بالاسباب، والايمان الواثق العميق بالله وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من اجلها. وبدون تحقق هذا التقابل فلن يكون نصر أو توفيق ولن يحتاج الامر إلى مزيد شواهد أو نقاش فان مجرى التاريخ الاسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات والوفا من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت.

وهذه شهادة المؤرخ الانكليزي المعاصر ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) يقول : " تعتبر معركة عين جالوت من اهم المعارك الحاسمة في التاريخ. ومن المحقق لو ان المغول عجلوا بارسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير ان احكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار، فما احرزه المماليك من انتصار انقذ الاسلام من اخطر تهديد تعرض له. فلو ان المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع ان المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم فانهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا المسيحي، لازداد عطف المغول على المسيحيين ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لاول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الاسلام. على انه من العبث ان نفكر في الامور التي قد تحدث وقتئذ فليس للمؤرخ الا ان يروي ما حدث فعلا اذ ان معركة عين جالوت جعلت سلطة المماليك بمصر القوة الاساسية في الشرق الادنى في القرنين التاليين، إلى ان قامت الامبراطورية العثمانية. فما حدث من ازدياد وقوة العنصر الاسلامي واضعاف العنصرالمسيحي لم يلبث ان اغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الاسلام، وعجلت هذه المعركة

بـزوال الامـارات الصـليبية لان المسـلمين المظفرين، حسـبما تنبـأ مقدم طائفـة فرسـان التيوتـون، اضحوا حريصين على ان يتخلصوا نهائيا من اعداء الدين ".

ولم يشأ رنسيمان ان يشير إلـى ان انتماء مغول غربي آسيا إلـى الاسلام لم يكن بسبب وجودهم في قلب اغلبية اسلامية فحسب، بل، وهذه هو الاهم، لما يملكه الاسلام نفسه من قدرة ذاتية على الجذب والتأثير، وفاعلية دائمة في التغلب على العناصر المناوئة الغريبة واحتوائها.

ومهما يكن من امر فان المعركة الفاصلة حققت وحدة بين مصر والشام كانت ذات قيمة سـتراتيجية كبيـرة فـي صـراع الاسـلام ضـد خصـومه التـاريخيين. اذ اصـبحت الـدرع الـذي يقـي المسلمين هجمات المغول الشرسة، ويمكنهم – في الوقت نفسه – من مجابهة التحدي الصليبي ومحاولة استئصال وجوده من الارض الاسلامية.

وليس ثمة غير الوحدة من طريق

إنها الوحدة نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على اقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس. وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة اخرى وتمنح المسلمين الارضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم الى احدى اثنتين: الاذعان لكلمة الاسلام أو العودة من حيث جاءوا. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن ان يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة ان تعوض عالم الاسلام عما فقده هناك.

وهنالك البعد الحضاري

وثمة من يقول ان المعركة خدمت اوربا نفسها وحفظت مدنيتها، كما يرى براون وغيره، وهذا حق، فان المغول كانوا يطمحون لغزوها وتخريبها، ولكن تقليم اظافرهم في عين جالوت، فضلا عن عوامل اخرى، صدهم عن المضي في الطريق إلى نهايته.

هذا إلى ان المعركة حققت للحركة الحضارية الاسلامية القدرة على مواصلة المسيرة وعلى ان تتجاوز محنة الدمار والتخريب الذي شهدته بغداد فها هي ذي في مصر والشام والمغرب تنجز المزيد من العطاء وتتحقق بالابداع في جوانب عديدة وساحات شتى. وليس كما يقال من ان عالم الاسلام دخل عصر الظلمة بعد سقوط بغداد. وليس ابن خلدون وابن كثير وابن تيمية وابو الفداء والسيوطي والسخاوي وابن القيم والجزري وغيرهم كثيرون سوى اشارات على طريق هذا التحقق المبدع الذي شهدته حضارة الاسلام يومها.

آن الاوان لكي نتعلم من التاريخ

لقد شهد تاريخ الاسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة منذ موقعة بدر التي فرق الله بها بين الحق والباطل، ومكن لدعوته الناشئة في الارض. والى ان يشاء الله. ولكن يبقى لمعركة عين جالوت ثقلها واهميتها وخصوصيتها. ذلك انها جاءت وظلام الاعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يطبق على نور التوحيد ويطمس على ألقه فردت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت الناس عموما والمسلمين خاصة، بالانتصار الباهر الذي حققته، كيف يكون الايمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس، قديرا على تحقيق المعجزات.

واليوم وقوى الضلال، المادية والصهيونية والاستعمارية الجديدة، تتجمع مرة اخرى في محاولة شرسة للاطباق على الاسلام عقيدة وشريعة وامة وحضارة ودولا.

فان لم نتعلم من (عين جالوت) سوى حقيقة انه بالايمان والثقة والعزم والتصميم يمكن ان نواجه المحنة ونتفوق عليها. فكفى بذلك من كسب تمنحنا اياه مطالعاتنا الجادة في التاريخ.

وإنه قد آن الاوان لكي نتعلم من التاريخ.

دراسات بلدانية تراثية

ملاحظات عن تراث الموصل

هنالك في الواقع طريقتان أو منهجان، لتحقيق التراث، يتمثل اولهما في القيام بدراسة شاملة للمعطيات التراثية المختلفة عبر نموها الزمني. أي متابعة هذه المعطيات في حركتها الدائمة والمتأرجحة بين المد والجزر لتقديم وصف تحليلي لهذه المعطيات ما بقي منها وما اندثر، مع تسليط الضوء على عوامل النمو أو الانحسار التاريخية والجغرافية. وتكاد معظم الدراسات والابحاث التي قدمت عن تراث الموصل في هذه المرحلة مندرجة تحت هذا المنهج (التاريخي).

إلا ان الضرورات الفنية العملية تقتضي التعامل مع هذه المعطيات وفق منهج آخر يعتمد القيام بمسح ميداني شامل لكل تفاصيل وجزيئات هذه المعطيات التي لا تزال قائمة وتقديم دراسة – أو دراسات – شاملة عنها مع عدم الاهتمام بتلك التي عفا عليها الزمن لسبب أو لآخر اللهم الا بقدر ما يتعلق الامر بتسليط الضوء على ما هو موجود فعلا.

هذا بالنسبة للمعطيات التراثية المادية، اما تلك التي تتميز بطابع ثقافي أو اجتماعي – على وجه التحديد – فان اية محاولة للالمام بها والاحاطة بدقائقها وتفاصيلها تقتضي اعتماد المنهجين معا. اذ ما اكثر العادات والتقاليد التي اهملت تمام في ميدان حياتنا الاجتماعية فهي من ثم بحاجة إلى دراستها تاريخيا فضلا عن متابعة ذيولها وبقاياها ميدانيا من اجل تحقيق السيطرة عليها، واعادة عرضها على الناس بهذا الشكل أو ذاك.

ومهما يكن من امر فاننا نستطيع لغرض التوضيح والمتابعة ان نقسم المعطيات التراثية إلى اقسام اربعة هي :

١– المخلفات العمرانية.

٢– الخطوط والزخارف.

٣– المخلفات الشيئية (مواد منقولة، اثاث، ملابس ... الخ).

٤– العادات الثقافية والاجتماعية.

وسينصب التركيز على القسم الاول، وهو اكثرها اهمية ولا ريب، مع عدم اهمال الاقسام الثلاثة الاخرى.

(١) المعطيات العمرانية

تركت لنا القرن الاخيرة رغم الاهمال وعدم الاكتراث ورغم عوامل التخريب والتدمير التاريخية والجغرافية الكثير من المعطيات العمرانية : بقايا اسوار وقلاع وابواب وقصور وقناطر وجوامع وازقة وحارات ومقاه وحمامات ومطاعم واسواق وقيصريات وخانات وجسور.

والخطوات المطلوبة من مؤسساتنا الآثارية والتراثية هي حصرهذه المعطيات المتبقية بعد مسحها مسحا ميدانيا شاملا وتصنيفها ثم تنظيم جدول عمل للصيانة والحماية والاظهار بتدرج وفق الاهم فالمهم فالاقل اهمية. ولنبدأ يتقديم بعض الملاحظات حول هذه البقايا وفق انماطها العمرانية.

أ- الاسوار والقلاع والابواب :

بسبب من النمو السكاني المتزايد للموصل وبخاصة في نصف القرن الاخير كادت اسوار المدينة القديمة وابوابها ان تختفي فيما عدا بقايا محدودة لا تقارن بما تعرض للزوال. ليس هذا فحسب بل ان مقتضيات هذا النمو المطرد والانفجار السكاني الذي تشهده هذه المدينة وما يتبعه من امتداد في العمران واتساع في الخدمات تجعل من الصعوبة بمكان السعي لاستعادة الاسوار القديمة بقلاعها وابوابها، انها مسألة تكاد تكون من الناحية العملية مستحيلة. وحيثما اصطدمت المطالب الآثارية بالمصالح العملية الاكثر ثقلا والزاما كان لابد من التضحية بالاولى، لا سيما إذا كانت قد فقدت المساحات الاوسع من تكوينها.

وقد يخطر على البال – ها هنا – اقتراح هو بمثابة حل وسط بين الحماية التراثية والمصالح العملية للمدينة، وذلك بمحاولة اعادة بناء جوانب من السور في الاماكن التي تتيح ذلك توازيها محاولة اخرى لاقامة عدد من الابواب القديمة (بحيث لا تتجاوز البابين أو الثلاثة). وتبقى هذه المساحات المقامة من السور وتلك الابواب المعاد بناؤها مجرد شواهد ناطقة على ما كان يحيط بالمدينة يوما من اسوار وينغلق عليها من ابواب. دون ان يؤثر ذلك على المتطلبات العملية لنمو المدينة المتزايد.

ثمة معلومات ليست بالقليلة، يستطيع أي باحث ان يلتقي بها بصدد الاسوار والقلاع والابواب سواء في المصادر التي عايشت القرون السابقة أو في الدراسات الحديثة التي تناولت جوانب من تاريخ الموصل السياسي أو الحضاري (بما فيها الجانب الآثاري). وليست مهمتنا هنا – كما سبق وان ذكرنا – هو إضافة بحث جديد إلى ما سبق وان كتب، أو محاولة استعادة هذا الذي كتب، وانما استخلاص نبذة مركزة من تلك الدراسات قد تعين على مواصلة المهمات العملية لحماية التراث وتسلط عليها المزيد من الاضواء.

كانت الموصل قد استقرت عبر القرنين الاخيرين، والى عهد ليس ببعيد بين اسوارها القديمة في الجانب الغربي من نهر دجلة، وكانت هذه الاسوار مبنية على انقاض الاسوار الاتابكية المخربة وهي تحيط بالبلدة من كل جهاتها ويبلغ طولها زهاء العشرة كيلو مترات وارتفاعها عشرة امتار بثخن يبلغ ثلاثة امتار وكان يحيط بالسور من جميع جهاته خندق واسع يبلغ عمقه سبعة امتار ويستمد ماءه من دجلة عند اقتضاء الحال، ويزيد من مناعة هذا السور وجود قلعتين فيه، الاولى في اعلى المدينة تطل على دجلة وتعرف (بباشطابيا) وهي من مخلفات العصر الاتابكي والاخر القلعة الداخلية (ايح قلعة) التي بناها بكر باشا أوّل وال موصلي عينته الدولة العثمانية (١٦٢٠م) عند بداية ضفة النهر بموازاة البلدية القديمة عند رأس الجسر الحديدي وفصلها عن المدينة بقناة تحيط بها من الغرب والجنوب وتأخذ ماءها من نهر دجلة. ثم ما لبثت هذه القلعة ان اهمل شأنها فتهدمت معظم مبانيها واتخذت اخربتها مساكن وصارت مستودعا للذخيرة والعتاد. اما الآن فلم يتبق منها سوى القليل. وثمة ابواب تنفتح في هذا السور في اماكن مختلفة يقع اعلاها عند مقبرة قضيب البان (شارع ابن الاثير) وهو من اقدم ابواب الموصل، كان يعرف بباب سنجار ثم عرف في عهد الجليليين (١٧٢٦-١٨٣٤) باسم (باب الميدان) ويليه جنوبا (باب البيض). وقد سمي بهذا الاسم لانه كان يؤدي إلى سوق (البيض) ويستدل من الكتابات التي كانت عليه على انه جدد سنة (١٦٣١م) ويلي هذا الباب في اقصى نقطة امتداد المدينة من ناحية الجنوب (باب العراق) وقد سمي بهذا الاسم لاتجاهه ناحية بغداد ونسبت اليه محلة كبيرة من البلدة، ويخترق هذه المحلة طريق عريض نسبيا يتجه شمالا على نحو مستقيم فيجتاز محلة قديمة تدعى شهر سوق ويقترب من وسط المدينة (قرب الجامع الكبير)، وقريب من هذا الباب الى اليمين قليلا يقع الباب الجديد وقد فتحه ابو الفضائل (على افندي المفتي العمري) احد اعيان المدينة عام (١٧٢٥) ، ويلي هذا الباب حتى التقاء السور بضفة النهر عدة ابواب هي بالترتيب : باب لكش، وباب السراي، وقد فتحه الجليليون في اواخر القرن الثامن عشر، وباب الطوب. وفي نقطة التقاء السور بشاطيء دجلة الغربي يقع باب الجسر، وهو منسوب للجسر الوحيد الذي يربط البلدة بالجانب الشرقي من النهر، ويليه من اعلى باب القلعة ثم باب شط المكاوي فباب الشط ويقع الاخير في شمال بقايا قصر بدر الدين لؤلؤ المعروفة بدار المملكة أو قره سراي[١].

---

(١) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، نقولا سيوفي: مجموع الكتابات المحررة في ابنية مدينة الموصل (تحقيق : سعيد الديوجي) ، ص ٤١ ، ١٤٤ ، سعيد الديوه جي : سور الموصل ، مجلة سومر ، ج٣ سنة ١٩٤٧ قلعة الموصل ، سومر ، ج٧ ، ١٩٥٤.

ب – الدور والقصور :

ها هنا لا يبخل علينا الزمن بحشد كبير من الدور والقصور قادمة الينا من قرن مضى أو قرنين وربما اكثر. ولكنها بسبب من التغير العمراني السريع للمدينة وبسبب من عدم الاهتمام الكافي بهذا النمط من الآثار تتعرض للانقراض يوما بعد يوم، ومع ذلك فثمة ما فيه الكفاية لاختيار شواهد نموذجية منه وشمولها بالعناية والرعاية فمعظم الطرز المعمارية القديمة لا تزال لها بقايا ها هنا أو هناك، ويمكن بعد مسح ميداني لهذه الطرز تحديد النماذج التي سيقع عليها الاختيار مع ملاحظة ان هذا الاختيار يجب ان يغطي اكبر قدر ممكن من الانماط المعمارية، وان يعنى إلى جانب ذلك بالتوزيع الجغرافي الدقيق. هذا إلى ان بالامكان اتخاذ بعضا من هذه الدور أو القصور متاحف لعرض المنقولات التراثية من أثاث وملابس ومواد. الخ. مما تركته لنا القرون الاخيرة أو تركت لنا مواصفاته على الاقل.

إننا نعثر على انماط من الدور القديمة في بغداد ودمشق والقاهرة، وغيرها من المدن العربية والاسلامية. ولكن الموصل، الغنية بانماط من المعمار القديم لا تزال تنتظر اليد التي تعيد الحياة والحركة إلى عدد منها قبل ان يحيق بها الهدم والخراب. ثمة اشارات وتفاصيل ليست بالقليلة زودنا بها الرحالة والدارسون عن دور الموصل وقصورها، وبنظرة الى معطياتهم نضع ايدينا على حشد من تلك الاشارات والتفاصيل : نيبور، لانزا، فنشنسو، تيفنو، راوولف، تافرينيه، جاكسون، أوليفيه، بكنغهام، مرزا ابو طالب، جون آشر ، وليم هود، بدج، بادجر، الميجر سون، وبكرام ودوبر. وهذه (المشاهدات) لابد منها لتنفيذ المقارنة المطلوبة بين ما كان وماهو كائن من هذه الدور لتحديد عمرها الزمني ومواصفاتها المعمارية. ولن يتسع المجال ها هنا لايراد كافة التفاصيل ونكتفي ببعضها فحسب ما دمنا قد اشرنا إلى اسماء الرحالة الذين قدموها.

تميزت دور البلدة بانها كانت ذات طراز واحد تقريبا فأكثرها مقببة وكانت المادة التي تستعمل في بناء المنشآت المدنية تكون عادة من الصخر والطابوق (الآجر) والجص وقد استخدم الرخام الذي كان يجلب من اطراف المدينة والجبال القريبة بوفرة، في زخرفة المداخل وفي رصف الحجرات، وصنع المحاريب، اما الجدران الاخرى فكانت تبنى بالآجر الاحمر، وكان الاسلوب الغالب في العمارة يعتمد على وجود منطقة مقتوحة من جهة الفناء اشبه بغرفة، ومن الجهة الاخرى تقوم غرف في الطبقة السفلى من الدار تتصل بها غرفة تحت الارض متقنة البناء تعرف (بالرهره) وهي تسكن صيفا اتقاء للقيظ. وشبيه بهذه الغرف نوع آخر من المباني التي تقام تحت الارض تستخدم لحفظ الحنطة، تسع الصغيرة منها من مائة الى مائتي كيس من الحنطة والكبيرة إلى اربعمائة وهي عميقة تشبه شكل الناقوس تحيط بها جدران قوية مطلية بالزفت لحفظ الحنطة التي يحتاج اليها الاهلون، وتسد بعناية، وكان الموصليون يحافظون على سلامة الحنطة

بهذه الطريقة مدة طويلة. وتتميز دور السراة الاكثر ثراء بانها تتكون من (حوش) مربع تحيط به مجموعتان أو اكثر من الحجرات تقع كل حجرتين على جانبي ايوان مرتفع السقف تحليه زخارف رخامية أو جبسية، كما تتميز بوجود نافورة جميلة تحتل وسط الفناء ويجري الماء اليها في مجار رخامية مفتوحة حيث يسقي اثناء مروره خلالها اصصا من الورد والبنفسج، وفي بعض البيوت الكبيرة كانت النافورة تنشأ في وسط السرداب كما في دار الغازي محمد امين باشا الجليلي المشيدة عام (١١٦٣هـ).

وكثير من دور المدينة كان مبنيا بالطين على ان الحيطان كسيت بطبقة من الجص وكانوا يتخذون للابواب وتبليط الدور نوعا من الجبس يشبه لاول وهلة الرخام الرمادي والابيض يظهر ان استعماله قديم جدا لانه كان يستخرج من الانقاض التي كانت في جنوب المدينة، فالقطع الكبيرة كانت تنحت وتصقل ثانية والبقية يصنع منها الجص. وكانت لكل دار سطح أو سطوح في وضع لا يمكن الجار رؤية ما يجري عليها وتصعد اليها النساء في ليالي الصيف لاستنشاق الهواء ... ونظرا لندرة الاخشاب فان معظم هذه الابنية لها، بدلا من السقوف الخشبية، سقوف معقودة تقوم فوقها غرف وسطوح معقودة تسند شرفاتها المنبسطة، ومداخل هذه المنازل والشبابيك التي تنفتح على الباحات الداخلية، متوجة بطاق من المرمر المجزع، وهو مشيد على الطراز الغوطي المدبب أو النورماندي المستقيم، أو الاقواس العربية، وتحلى قطعة المرمر في بعض الحالات برسوم ازهار منحوتة وهي متقنة الصنع غالبا. وهناك بعض المنازل البسيطة كان يقطنها النساجون يكون نصفها تحت الارض والجزء الاسفل منها مغلق اثناء النهار حيث تقوم فيها المناسج، بينما يرقدون على سطوحها اثناء الليل، والكثير من هذه السطوح مسورة بجدران تحجب الذين ينامون فيها من تعرضهم للانظار. ولهذه المنازل منافذ مصنوعة من اسطوانات فخارية مجوفة وفيها مزاغل لتثبيت البنادق في الجدران استعداداً لاسباب الدفاع،ولشدة الحر ينام الاهلون اربعة أو خمسة اشهر الصيف على السطوح آمنين من المطر.

وكانت باحات المنازل من الداخل لطيفة المنظر واقل ما يقال عن طرز هندستها انه اثري الطابع فهو مطابق تماما لما وجد في المنازل الآشورية، ومدخل المنازل الموصلية مبني بشكل يحول دون رؤية ما بداخل المنزل بالنسبة إلى المارة في الشارع أو عند فتح الباب، وهو يفضي إلى صحن الدار الذي يحيط به رواق من طابقين مدعم بالاساطين المدورة من المرمر الازرق المحلي وصحن الدار مبلط بالمرمر. وغالبا ما تبلط واجهة الدار بالمواد نفسها. وقناة الماء القذر (البالوعة) تكون عادة في باحة الدار، وفي وسط الصحن قد توجد حديقة صغيرة.

وقد قدر عدد بيوت الموصل في القرن الثامن عشر ما بين العشرين الف بيت والاربعة والعشرين الف بيت، وقدرها احد الرحالين في القرن التاسع عشر بثلاثين الف بيت أو اكثر.

وكانت تخترق الموصل يومذاك شبكة من الازقة والطرق معظمها معبد خال من الاوساخ وقد وصفها اكثر من رحالة بانها كانت مستقيمة، جافة في الصيف وموحلة في الشتاء. وتتألّف البلدة من احياء وحارات عديدة وهي تمتاز عن سائر المدن الشرقية من هذه الناحية بفارق واحد وهو انه ليست فيها محلات منفصلة عن بعضها بعضا ذوات ابواب خاصة كما هو الحال في بغداد والقاهرة بل ان لجميع الطرقات مداخل في نهاياتها، اما المنازل فمستقلة عن بعضها البعض الا انها تزدحم عند اسوار المدينة الجنوبية حتى تشكل قسما من السور نفسه[١].

وتشكل القناطر المعقودة عبر الازقة في انحاء مختلفة من المدينة ملمحا من ابرز الملامح التراثية للموصل ولحسن الحظ فان الكثير منها ما بين صغير وكبير مستقيم وملتو لا يزال قائما، ويبدو ان العديد من هذه القناطر حديث عهد نسبيا ومع ذلك فان امتدادها الزمني الذي قد يجاوز القرن وارتباطها العمراني بأزقة الموصل وحاراتها ودورها يجعلها ذات اهمية كبيرة. ومن السهولة بمكان احصاء هذه القناطر وتثبيتها واختيار بعضها لكي يشمل بالصيانة المطلوبة من اجل ان يكون شاهدا على واحد من ابرز الملامح العمرانية للبلد.

ج – المؤسسات الرسمية :

وما بقي للموصل من المؤسسات الرسمية (الادارية) يرجع معظمها إلى فترة قريبة نسبيا فيما عدا المدارس والمرافق العسكرية بطبيعة الحال. وقد تعرضت هذه البقايا بدورها للزوال حيث ازيحت لتنشأ فوقها مرافق اكثر حداثة ومع ذلك فلاتزال شواهد من هذه المؤسسات مثبتة هنا وهناك في انحاء من الموصل، ويمكن بعد مسحها وتثبيتها ان يقع الاختيار على واحد أو اثنين منها لكي تتخذ ازاءها اجراءات الحماية والصيانة. ولا نجد على مستوى الوصف التاريخي لهذه المنشآت شيئا ذا بال. وثمة اشارة سريعة الى المحكمة الشرعية في منطقة باب لكش جنوبي الموصل[٢] واخرى عن واحدة من اهم الدور العامة المنشأة في عهد الجليليين. سراي الحكم الذي

---

(١) عماد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص ٤٣٧–٤٣٩ ، سهيل قاشا : الموصل في مذكرات الرحالين الاجانب في فترة الحكم العثماني ، مجلة بين النهرين ، عدد ٢٠–٢١ ، سنة ١٩٧٨ احمد الصوفي : خطط الموصل ، جزء ٢ ص ٩ – ١٢، دومنيكو لانزا : الموصل في الجيل الثامن عشر ، ص ١٠–١٣ ، نيبور، رحلة نيبور إلى العراق ، ص ١٠٧–١٠٨ ، دبليو ويكرام: مهد البشرية ، ص ٧٢–٧٣ سير بدج : رحلات إلى العراق ٢٨٨/١ ، جمس بكنغهام : رحلتي إلى العراق ، جزء ١ ، ص ٦٠–٦١ ، محمد ابن احمد الحسيني المنشى : رحلة المنشى البغدادي ، ص ٧٩.

H. Dupre: Voyage en Perse, p. 117, 148, A Heude: Avoyage p.218 H.C. Luke: Mosul and its Minorities p 20, Sestini: Voyage de Constantinople, p. 146, 147, 148.

(٢) عماد عبد السلام : المرجع السابق هامش ٢ ، ص ٢٥٦.

اقيم في جنوب المدينة وقريبا من السور وكان مركز الولاية قبل هذا العهد يقع في القلعة الداخلية (ايج قلعة) المحاطة بالمياه. وقد ثبت نيبور في مخطط للموصل عام/١٧٦٦ موقع هذا السراي قريبا من باب لكش. ووصفه الرحالة سيستيني في عام/١٧٨١ بانه مكون من عشرين حجرة مستطيلة عرض كل منها ثمانية امتار. وذكر دوبريه انه كان آية في الجمال. وبذلك اقتصرت القلعة على مهمتها الاساسية باعتبارها موقعا عسكريا تثيم فيه قوة من العسكر فقط[١].

د – الاسواق والخانات والحمامات والمقاهي والمطاعم :

من خلال جولة سريعة في مناطق الموصل القديمة يمكن مشاهدة العديد من المرافق الاجتماعية : اسواقا وخانات وحمامات ومقاه ومطاعم. تحمل طابعها القديم المميز الذي يمتد بعضه إلى اكثر من قرون ثلاثة ولا يتجاوز عمر البعض الاخر القرن الواحد. وهذه المرافق بطرازها المتميز ومستلزماتها المعمارية ومواد بنائها واصباغها تسهم إلى حد كبير بمنح الموصل خصوصيتها التراثية وشخصيتها المتفردة. ويزيد هذه المرافق اهمية انها لا تزال تؤدي دورها بنفس الطرق والاساليب التي عرفتها منذ قرون وقرون. ويزيدها اهمية – كذلك – ان الكثير منها لا يزال قائما لم يمسه اذى : بسقوفه المعقودة، باعمدته الرخامية، بارضيته المرصوفة، بدكاكه المرتفعة، وبتكييفه الجيد لتقلبات الحر والبرد. وانه ليمنح الانسان المعاصر، مواطنا أو رحالة، في زمن السرعة والتغير العنيف احساسا بالهدوء والطمأنينة والسكينة، هو بأمس الحاجة اليها.

ومنذ عقود من الزمن اخذت يد الهدم والتصفية تمتد إلى هذه المرافق الاجتماعية ذوات العدد لكي تكتسحها وتقيم بدلا منها منشآت جديدة على طراز حديث لا يمتد إلى الماضي القريب أو البعيد بصلة، ولا تأخذه بشخصية المدينة العريقة شفقة ولا رحمة. يزال هذا المقهى أو ذاك. وتسوى هذه القيصرية أو تلك لكي ما نلبث ان نفاجأ ببناء جديد اصم مصبوب من خليط السمنت والحديد مكتسب منهما الصرامة والقسوة. بخطوطه المستقيمة الحادة وزواياه القائمة وابوابه المتشابهة كالارقام. ليس ثمة لمسة من لمسات الفن الجميل أو العاطفة البشرية. ليس ثمة سوى (المنفعة) من اقرب طريق. وارخص طريق.

وان لم تتدارك مؤسساتنا الاثارية والتراثية وجه المدينة الاصيل من فناء الملامح وضياع القسمات فمن يتداركه ؟ ان مدينة لا تملك وجها احرى بها الا تكون ...

ثمة اشارات عديدة لرحالة زاروا المدينة منذ قرون وقرون، جاءوا اليها من اماكن شتى وحدثونا عن ببعض ما شاهدوه. ومؤرخين من ابناء المدينة نفسها شاركوا في الوصف والحديث.

---

(١) نفسه ، ص ٤٣٩ (Dupre op. cit, Sestini, Op. cit, p.128).

ونكتفي هنا ببعض الاشارات فلربما تساعد أي جهد يبذل لحماية لهذه الاثار وتحديد عمرها الزمني وطرائق خدماتها.

إشار تافرنييه الذي زار الموصل في القرن السابع عشر بانها تكاد تكون خربة برمتها وليس فيها سوى سوقين معقودين، وخانين حقيرين، في حين يشير العمري إلى انه كان فيها في اواخر القرن الثامن عشر خمس وعشرون خاناً وعشرة قيصريات وعشرون حماما عاما، ومائة وثلاثة عشر مجمعا للقهوة وقدر نيبور عام/١٧٦٦ عدد خانات المدينة بخمسة عشر خانا منها عشرة خانات كبيرة وواسعة وقد بنيت خصيصا لتوفير الراحة، اما المقاهي والحمامات والاسواق فان القسم الاعظم منها جميل وخلاب على ان اجمل واحسن هذه الاماكن العامة تعود الى الاسرة الجليلية.

ويقدر دوبرويه عدد خانات الموصل الرئيسية في اوائل القرن التاسع عشر باثني عشر خانا منها اثنان هما، خان العلوة، وخان المفتي، لكل منهما ست وعشرون حجرة ويستعملان أيضاً لاغراض شتى كاعتقال الغرباء وكمخزن لبضائع الكمارك التي تفرض عليها الرسوم. ويصف بكنغهام اسواق الموصل بانها، وان لم تكن مثل اسواق القاهرة في جمالها الا انها تتميز بشيء واحد هو كثرة ووفرة ما فيها من الحاجات والضرورات التي تأتيها من المناطق الجبلية، وافضل اسواق الموصل من حيث البناء والتصميم هو السوق الذي تباع فيه السلع الغالية مما يستورد التجار من اوربا والهند. اما المقاهي فهي كثيرة وواسعة بشكل عام، والبعض منها قد يحتل احد الشوارع بطوله ويمتد مائة ياردة حيث تصف المقاعد على جانبي الطريق الذي يظلله سقف من الحصير. اما الحمامات فيقدر بكنغهام عددها في الموصل بنحو ثلاثين حماما.

وذهب الرحالة هود، وقد زار الموصل في اوائل القرن التاسع عشر، إلى انه كان في المدينة على ايامه ستة عشر خانا تفتح غالبا لاستقبال المسافرين من بينها عشر أو اثنا عشر ضخمة البناء وهي مستمرة في تلبية اي طلب لراحة المسافرين بحسب العادات الشرقية. ويشيد هود بحمامات الموصل ويقول عنها بانها من احسن ما راى وان اغلبها مغطى بالرخام وفي غاية اللطف والنظافة.

وتبين لنا الكتابات المحررة على ابنية مدينة الموصل ان اغلب ما شُيّد في هذه المنطقة من المرافق التجارية يرجع للقرنين الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر، وكثير من هذه المنشآت كانت وقفا على المدارس والمساجد والمرافق الاخرى. فمن اوقاف جامع الباشا التي اوقفها محمد امين الباشا الجليلي : الحمام الشهير بحمام (القمرية) وقيصرية الكونجية والخان الفوقاني والقهوة خانة (المقهى) الواقفة قبل قيصرية الكونجية مع سبعة دكاكين في اطراف الحمام والقيصرية الواقعتين في السوق الكبير. وكانت قيصرية العبدالية في سوق باب السراي مع البناء

الذي يعلوها والذي يحيط بها وقفا مؤبدا على المدرسة العبدالية والنصف الاخر على المدرسة الاحمدية، وفي سوق اليمنجية كان هنا ثلاث قيصريات مكتوب عليها (هذا ما انشأه. الوزير احمد باشا في شهر رجب ١٢٣٠هـ)[١].

هـ- الجوامع والمساجد والكنائس :

ها هنا أيضاً ترك لنا الزمن حشدا كبيرا من آثار القرون القريبة الماضية جوامع، وكنائس، ومدارس، ومكتبات. ونستطيع القول بان ما بقي لنا من هذه المنشآت لا يقارن بالمنشآت الاخرى في تنوعه وكثافته. وبجولة سريعة في انحاء الموصل القديمة يستطيع المرء ان يحكم على ما تمتاز به المدينة من غنى في هذا المجال. وثمة احصائيات قديمة تمنحنا بعض الارقام : المؤرخ الموصلي امين العمري قدر عدد دور العبادة والثقافة بثمانية عشر جامعا وثلاثمائة مسجد واربعة عشر مدرسة، بكنغهام قال انها تبلغ زهاء خمسين مسجدا منها ثلاثون صغيرا ومتوسطا وعشرون كبيرا، بادجر اشار إلى انه يوجد في الموصل على ايامه اكثر من تسعة عشر جامعا ومائتين وخمسين مسجدا واثني عشر مدرسة[٢].

وعلى اية حال فقد ترك لنا الباحث الاستاذ سعيد الديوجي في بحثيه القيمين (جوامع الموصل في مختلف العصور) و(مدارس الموصل في العهد العثماني) دراسات تفصيلية عن جوامع الموصل ومساجدها ومدارسها (ومكتباتها ضمنا) عبر العصور المختلفة والعصر العثماني بوجه خاص ونستطيع ان نستخلص قوائم يمكن ان يحال عليها ما هو قائم فعلا من هذه المنشآت لاغراض المسح والدراسة التراثية ولتنظيم خرائط يستهدى بها للحماية والصيانة. وسوف لا تتحدد القوائم المدرجة ادناه بالقرون الثلاث الاخيرة بل ستمتد لكي تغطي العصر العثماني كله وسنكتفي باسم المنشاة وتاريخ انجازها اما التفاصيل فيمكن ان نجدها في البحثين المذكورين حيث لا مبرر للتكرار.

---

(١) عماد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣-٤٥٦ ، سيوفي : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، تافرنييه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، نيبور ، المرجع السابق ، ص ٤٤٤ . بادجر : النساطرة ، مجلة بين النهرين ، عدد ٩-١٠ ، سنة/١٩٧٥.

(٢) سومر ، مجلد ١٨ سنة/١٩٦٢.

(١) الجوامع:

(2)

١	جامع العمرية	٩٧٠هـ
٢	جامع خزام	حوالي٩٨٠هـ
٣	جامع الجويجي	١٠٦٠هـ
٤	جامع الشيخ عبدال	١٠٨٢هـ
٥	جامع الشيخ محمد (ويسمى ايضا المنصورية)	١٠٨٤هـ
٦	جامع التوكندي	١٠٨٥هـ
٧	جامع عمر الاسود (ويسمى أيضاً شهر سوق)	١٠٩٣هـ
٨	جامع السلطان اويس	١٠٩٥هـ
٩	جامع العنبار بعد سنة	١١٠٥هـ
١٠	جامع الاغوات	١١١٤هـ
١١	جامع الباشا	١١٦٩هـ
١٢	جامع الامام الباهر قبل سنة	١١٧٨هـ
١٣	جامع الرابعية	١١٨٠هـ
١٤	جامع سوق العلوة	١١٨١هـ
١٥	جامع الزيواني	١١٩٣هـ
١٦	جامع بكر افندي	١٢٠٥هـ
١٧	جامع جمشيد	١٢١٢هـ
١٨	جامع المحموديين	١٢١٢هـ
١٩	جامع النعمانية	١٢١٣هـ
٢٠	جامع الشهوان (شيخ الشط)	١٢١٩هـ
٢١	جامع باب الطوب	١٢٣٠هـ
٢٢	جامع النبي شيت	١٢٣٢هـ
٢٣	جامع زقاق الحصن	١٢٣٥هـ
٢٤	جامع القلعة	١٢٣٧هـ
٢٥	جامع الخاتون	١٢٤١هـ
٢٦	جامع عبدالله بك	١٢٨٥هـ
٢٧	جامع حمو القدو	١٢٩٨هـ

هذا هو اهم ما تبقى للموصل من جوامع انشئت عبر العصر العثماني علما بان عددا من هذه الجوامع يعود في بداياته الاثارية إلى فترات ابعد بكثير حيث كان مسجدا أو مشهدا أو مزارا، واعتمدنا ها هنا تواريخ تحويله إلى جامع وهذا يقودنا إلى المساجد نفسها، تلك التي لا يزال حشد كبير منها ينبث في انحاء الموصل بعضها يمكن تحديد تواريخه بدقة وبعضها الاخر يصعب معه التحديد بل يغدو مستحيلا لانعدام الدليل أو ضياعه، ومهما يكن من امر فان بمقدور المؤسسات المعنية من خلال القيام بعملية مسح شاملة للمساجد الصغيرة ان تنظم ثبتا دقيقا يتضمن قدرا من التفاصيل قد يخدم المهمة التي تستهدفها. علما ان المؤرخ الموصلي امين العمري اشار في (منهل الاولياء) إلى ان عدد مساجد الموصل على عهده بلغ ثلاثمائة مسجدا. ويذهب الرحالة بادجر إلى قريب من هذا الرقم فيشير إلى انه بلغ مائتين وخمسين مسجدا، وثمة اشارات عن الجانب المعماري للجوامع والمساجد قد تخدمنا فيما نحن بصدده : شيد كثير من دور العبادة بالرخام أو زين به، وتبارى النحاتون في تصميم المحاريب الرخامية الجميلة وزخرفتها والكتابة عليها. فكان محراب جامع الاغوات مثلا يتألف من اسطوانتين عليهما قوس يكون واجهة المحراب، ويتألف سقف المحراب من مناشير رخامية مزخرفة تعلوها زخارف تشبه القوقعة، وفي داخله وحدات رخامية منها ما هو على شكل محراب أيضاً منحوت في داخله قنديل بارز وحوله ما يشبه زهرة الاقحوان، وفي محراب جامع الشيخ عبدال نجد ان الفنان استخدم شكل اوراق الكرم في زخرفته، وكان مما شاع أيضاً في ذلك العهد من الفنون المعمارية، طراز القبة المزدوجة وهي عبارة عن قبتين متداخلتين بينهما فراغ، وقد عرف هذا الطراز في مساجد ومشاهد مختلفة وهو في حقيقته ليس الا احياء لعنصر آخر من عناصر الفن المعماري الاتابكي في الموصل. وفي بعض الاحيان كان يستعاض عن القبة الثانية (الخارجية) بمناشير من الجص والحجارة لتحفظ القبة الداخلية اتي تحتها من عوارض الطبيعة. واغلب قباب الموصل التي ترتقي إلى هذا العهد مبنية على شكل نصف كرة تستند على اساطين من الرخام تزينها مقرنصات (دلايات) من الجص، وكثيرا ما دهنت هذه القباب من الداخل وزينت بزخارف جبسية ناتئة على شكل دائرة تتوسطها النجمة الاشورية (زهرة الاقحوان).

ولأغلب مساجد هذا العهد مئذنة مشيدة بالآجر ومستديرة الشكل من الاعلى في حين تستند إلى قاعدة مربعة من الاسفل، وتتميز مآذن الموصل عن مثيلاتها في بغداد – خلال الفترة ذاتها – بانها لم تعتمد في حليتها الزخرفية على استعمال مادة القاشاني الملون الا في مواضع قليلة جدا حافظت على الطرز القديمة المتمثلة بالتزيين بالزخارف الآجرية الناتئة، فكانت المئذنة تنقسم إلى عدة مساحات يشغل كل واحدة منها نوع مختلف من الزخارف الهندسية ويزينه احيانا نطاق من الرخام تكتب عليه بعض الايات القرانية. اما القسم الاسفل فيبنى عادة من الحجر

الاسمر المعروف (بالحلان) ويستند إلى قاعدة مربعة الشكل، وتمتاز المئذنة الموصلية في هذه الفترة أيضاً ببساطة المقرنصات (الدلايات) الحاملة لحوضها (شرفتها) كما ان المسافة بين قاعدة المئذنة وحوضها تكون اطول بكثير عما هي عليه بين الحوض وقمتها وهذه الظاهرة كسابقتها من مميزات المآذن القديمة في العراق.

وزودت اغلب مساجد هذا العهد بسقايات خاصة (سبيلخانة) وشيدت في بعضها نافورات الوضوء كما فعل مثلا محمد باشا الجليلي في ساحة جامع الزيواني وكثيرا ما كان يتخذ الشعر وسيلة لتزيين مثل هذه الاماكن وتسجيل اسماء مؤسسيها عليها[1].

(٢) اما الكنائس التي يرجع بناؤها إلى العصر العثماني فهي:

١- الكنيسة الانجيلية (في شارع الفاروق) شيدت عام/١٨٠٤.

٢- كنيسة الارمن (في محلة حوش الخان) شيدت عام/١٨٥٧.

٣- كنيسة مار توما الرسول (في محلة خزرج) شيدت عام/١٨٦٣.

٤- كنيسة سيدة الانتقال، وتعرف باسم كنيسة الطاهرة الجديدة تمييزا لها عن القديمة (في محلة حوش الخان) شيدت عام/١٨٦٥.

٥- كنيسة اللاتين (منطقة الساعة) شيدت عام/١٨٧٢ والى جوارها دير الاباء الدومنيكان ومعهد مار يوحنا الكهنوتي الذي فتح ابوابه عام/١٨٧٨م.

(٣) المدارس:

١- المدرسة اليونسية (في جامع النبي يونس) (عليه السلام) حوالي سنة/١٠٠٠هـ.

٢- دار القران اليونسية (في جامع النبي يونس) (عليه السلام).

٣- مدرسة طه افندي محضر باشي (بجوار جامع النبي جرجيس) قبل سنة/١٠٣٩هـ.

٥- مدرسة جامع الجويجي (في محلة باب الجديد) بعد سنة/١٠٦٠هـ.

٦- المدرسة العبدالية (في جامع العبدال)/١٠٨٠هـ.

٧- المدرسة الخزامية (في جامع خزام)/١١٠٧هـ.

٨- المدرسة الجليلية (في جامع الاغوات)/١١١٤هـ.

٩- مدرسة الحاج محمود النومة (في مسجد خزرج)/١١٢٠ هـ.

---

(١) عماد عبد السلام : المرجع السابق ، ص ٤٤٤-٤٤٧ سعيد الديوجي : جوامع الموصل ، ص ١١٥، ١٥٣، ١٦١ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٤٠ ، ، سيوفي : المرجع السابق ، ص ١٣٨.

١٠- مدرسة محمد آغا السعرتي (في مسجد اولاد السعرتي في محلة الامام عون الدين)١١٢٧هـ.
١١- دار القرآن الجرجيسية (في جامع النبي جرجيس)/١١٢هـ.
١٢- مدرسة ياسين افندي المفتي (امام خان المفتي) قبل سنة/١١٣٥هـ.
١٣- المدرسة الامينية (في جامع الباشا)/١١٦٩هـ.
١٤- مدرسة مسجد الشيخ ابي العلا (جددت عمارته سنة/١١٧٦هـ).
١٥- دار القرآن الرابعية (في جامع الرابعية)/١١٨٠هـ.
١٦- المدرسة المحمدية (في جامع باب البيض، أو الزيواني)/١١٩٣هـ.
١٧- مدرسة مسجد العراقدة (في محلة حمام المنقوشة)/١١٩٤هـ.
١٨- مدرسة الحاج زكريا (في محلة باب الجديد)/١٢٠١هـ.
١٩- المدرسة الاحمدية (في محلة باب السراي)/١٢٠٢هـ.
٢٠- مدرسة يونس افندي (بجامع بكر افندي بمحلة رأس الكور)/١٢٠٧هـ.
٢١- مدرسة محمود باشا الجليلي (في جامع جمشيد)/١٢١٢هـ.
٢٢- مدرسة بكر افندي (في جامع جمشيد)/١٢١٢هـ.
٢٣- المدرسة النعمانية (في جامع النعمانية)/١٢١٣هـ.
٢٤- مدرسة جامع التوكندي(قبل سنة/١٢٧١هـ).
٢٥- مدرسة احمد باشا الجليلي (في جامع النبي شيت)/١٢٣٢هـ.
٢٦- المدرسة الحسينية ودار القرآن (بالقرب من حمام قره علي)/١٢٣٢هـ.
٢٧- المدرسة المحمودية (مقابل جامع الرابعية)/١٢٣٢هـ.
٢٨- مدرسة جامع باب الطوب/١٢٣٢هـ.
٢٩- مدرسة ابن الحبار (غربي جامع النبي جرجيس)/١٢٣٥هـ.
٣٠- مدرسة الحجيات (بجوار حمام باب البيض) قبل سنة/١٢٣٩هـ.
٣١-مدرسة يحيى باشا الجليلي (خلف جامع النعمانية).
٣٢- مدرسة الخاتون (في جامع الخاتون)/١٢٤١هـ.
٣٣- مدرسة الخزندار (بجوار مسجد الصوفية)/١٢٤١هـ.
٣٤- مدرسة الجلبي (تعرف أيضاً بمدرسة الصائغ)/١٢٥٠هـ.
٣٥- مدرسة ابن الخياط (على شارع سوق الشعارين في فناء مرقد الامام ابراهيم).
٣٦- مدرسة محمود بك محضر باشي (في محلة باب النبي بالقرب من مسجد الشالجي) رممت المدرسة سنة/١٢٦٤هـ.
٣٧-مدرسة الحاج حسين بك (في جامع السلطان ويس)/١٢٦٩هـ.

٣٨-مدرسة مسجد بنات الحسن/١٢٧٠هـ.
٣٩- مدرسة عبدالله بك (في جامع عبدالله بك في رأس الكور)/١٢٨٥هـ.
٤٠- مدرسة الحاج عبدالله حمو القدو/١٢٩٨هـ.
٤١- مدرسة عثمان الديوجي (في مسجد منصور الحلاج في محلة باب المسجد)/١٣٢٧هـ.

تلك هي اهم المدارس التي نستطيع ان نستخلصها من بحث الديوه جي المذكور بعد اعادة ترتيبها زمنيا، وكثير منها لا يزال قائما، ويمكن عن طريق مسحها تثبيت ما هو مهم منها لغرض صيانته، وربما اعادة الحياة التدريسية فيه لتبقى شاهدا على طرائق التدريس في العصور السابقة. وثمة اشارات للديوجي في بحثه يتوجب ايرادها هنا لانها تتعلق بتخطيط المدرسة يومها " انها غرفة كبيرة واحدة مستقلة الشكل تتألف من جناحين يكون على يمين الداخل اليها الجناح الخاص بالمدرس وفي صدر هذا الجناح تكون خزانة الكتب اما الجناح الثاني على يسار الداخل، فيكون للطلاب الذين يدرسون في المدرسة. وقد يلحق بمثل هذه المدرسة غرفة أو اكثر تكون على جانبيها، وهي لسكنى الطلاب الفقراء الذين يقيمون في المدرسة وينفق عليهم مما اوقف لهم، وامام هذه الغرف تكون اروقة تجمعها ، مثل مدرسة الحاج حسين بك في جامع السلطان اويس وكان لبعض المساجد التي لا ترتبط بالمساجد بنايات خاصة لكل منها، وتتألف المدرسة من غرفة للتدريس واخرى لمعيد المدرس – ان كان بها معيدا – ويكون داخل غرفة المدرس الكتب أو تكون الخزانة في غرفة داخل المدرسة، كما في المدرسة الحسينية، ويكون في المدرسة غرفة أو اكثر لسكنى الطلاب الفقراء الذين يدرسون فيها، وقد يكون في المدرسة مصلى لأداء الصلوات فيه كما في المدرسة الاحمدية ومدرسة الحاج زكريا وغيرهما، وبجانب غرفة التدريس مدفن باني المدرسة، بينهما شباك، كما في المدرسة الحسنية ومدرسة الحجيات ومدرسة يحيى باشا الجليلي والمدرسة الاحمدية وغيرها[١].

(١) سومر ، مجلد ١٨ ، سنة ١٩٦٢.

(٢) المعطيات الاخرى

الخطوط والزخارف :

حفظ لنا تاريخ القرون الاخيرة للموصل كنوزا غنية حقا في مجال الخط والزخرفة. ابتداء بتلك التي فرشت على صفحات الكتب والمؤلفات المخطوطة والمزخرفة وانتهاء بتلك التي امتدت على واجهات العمائر وافاريزها، مرورا بتلك التي زينت بها مواد الزينة واثاث الاستعمال اليومي. وقد اتيح لهذه الكنوز من يعكف على حمايتها بالتسجيل والتصوير والتثبيت وبالتاريخ والتحقيق والتحليل. ولن ننسى هنا جهود نيقولا سيوفي في كتابه (مجموع الكتابات المحررة على ابنية الموصل) الذي زادته تحقيقات الديوجي وايضاحاته اهمية، وداود الجلبي في كتابه (مخطوطات الموصل) ويوسف ذنون في عدد من دراساته وسالم عبد الرزاق في كتابه الشامل ذي المجلدات التسعة (فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف في الموصل) وسعيد الديوجي في عدد من كتبه وابحاثه وبخاصة (اعلام الصناع المواصلة) وغيرهم. والذي يتوجب عمله بهذا الصدد هو اخراج فهرست أو (كتالوك) يضم جناحيه على تراث الموصل الخطي، أو نماذج خطية منه على الاقل، تعرض مصنفة ومدروسة بالاعتماد على ذوي الخبرة في هذا الميدان، وذلك اسوة بما فعله بعض الباحثين الغربيين، وليس كتاب (سوفاجيه) الشهير ببعيد. عن الاذهان.

المخلفات الشيئية (المنقولة) :

من مواد منزلية واثاث وملابس وتحف فنية وادوات تجميل وزينة، أو عمل وانتاج. ونقود. إلى آخره.

وهنا يتوجب القيام باحدى اثنتين : اما دراسة (أو دراسات) شاملة لتحديد انماط الاشياء المنقولة المراد حمايتها و عرضها. أو مسح عملي لما تبقى من هذه الاشياء، ثم دراستها فيما بعد لغرض الافادة من هذه الدراسة في العرض والصيانة. وما اكثر الاشياء التي خلفتها القرون الاخيرة. ولا تزال في بيوت الكثير منا بعض هذه الاشياء التي كانت إلى عهد قريب جزءا اساسيا من حياة الموصل اليومية وحاجاتها المنتشرة في كل مكان. وثمة فضلا عن هذا، شهادات الجيل السابق التي يتوجب تسجيلها قبل ان يتعرض للزوال. ففيها الكثير مما يعين على المهمة ويختصر الطريق. وهناك أيضاً شهادات الجغرافيين والرحالة الذي زاروا الموصل وتحدثوا عما شاهدوه ووقفوا بعضا من الوقت امام اثنتين مما قد يفيد في تحديد ملامح عدد من (الاشياء) التي سادت حياة الموصل اليومية عبر القرون الاخيرة، الصناعات لتي ازدهرت في المدينة يومها والازياء التي شاعت، وهذه نتف مما شاهدوه نورده على سبيل المثال لا الحصر : لاحظ الرحالة

البريطاني جاكسون عام (١٧٦٧م) ان سكان الموصل اكثر اهتماماً بالصناعة من أي قوم آخرين رآهم عند مغادرته الهند. ويقول هنالك عدة مصانع يجري تشغيلها وبعض مصنوعاتها تتفوق على الصناعات الاوربية، فسروج الخيول واحزمتها تظهر جد انيقة بوجه خاص، وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالازهار فيظهر احسن وامتن من السجاد الذي نصنعه نحن. وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال والنساء معا، ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد، وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن يتم ارسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة. وكان الرحالة ايفز الذي زار الموصل سنة/١٧٥٨ قد اشاد بمصانع النسيج الموصلي (الموسلين) واثنى على جودة مصنوعاتها، كما اشار الرحالة نيبور سنة (١٧٦٦) إلى وجود مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وطباعة النقوش على المنسوجات وامتدح أوليفية في رحلته عام/١٧٩٤ انتاج هذه المصانع وذكر انها منتشرة في المدينة، وان قيمة منسوجاتها كبيرة حيث انها تباع في حلب للتجار الفرنسيين، فتشحن من هناك إلى مرسيليا. ونوه رحالة عديدون اخرون بالصناعة الموصلية مثل : دوبريه، وبكنغهام، وبادجر[١].

وبصدد الازياء يقول بكنغهام : يلبس الصغار من الاولاد عادة قرطا ذهبيا في احدى الاذنين بينما تلبس الفتيات حلية اشبه بالزر مرصعة باحجار صغيرة من الفيروز معلقة بثقب في الانف. ويرتدي الرجال اللباس التركي ما خلا العمائم والطرابيش العالية مثل اهالي سوريا بدلا من القاووق التركي والسراويل المصنوعة من نسيج صوفي جميل عوضا عن الثياب القطنية، وتلبس النساء رداءا واقيا ازرق اللون اشبه بما هو مألوف في مصر وسوريا، ويستعملن حجابا من نسيج شعر الخيل الاسود يغطي الوجه كله، وبذلك يظهرن بمظهر لا يثير الاهتمام غالبا. ويقول الرحالة الاخر بادجر : يختلف لباس الذكور في الموصل قليلا عن سائر مدن الشرق، وللاناث نوع خاص من غطاء الرأس يتكون من برنس مربع حشو في قمته وسادة مستديرة سمكها انجان تحتها صفيحة مذهبة توضع على الرأس والرقبة مع عدة أوشحة فتشكل نوعا من العمامة وهي للنساء الشابات مرصعة بالجواهر وسائر الاحجار الكريمة، ولهن عصائب ذوات زوايا ذهبية وقلائد مصنوعة ببراعة واقراط وخلاخل واساور كل ذلك يثير اعجاب الجنس اللطيف، ليس هنا فحسب بل في كافة انحاء العالم، غير ان كل هذه الزينة محفوظة للبيت لان

---

(١) عماد عبد السلام : المرجع السابق ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ، جاكسون : مشاهدات بريطاني في العراق ، ص ١٠٥ ، نيبور : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، بكنغهام ، المرجع السابق ، ص ٦٦ ، بادجر : النساطرة، مجلة بين النهرين ، عدد ٩-١٠ ، سنة ١٩٧٥.

المرأة لا تخرج منه بدون الملاءة الزرقاء المتعددة الالوان والخمار المربع المصنوع من شعر الحصان الذي يشد على الرأس ويتدلى حتى الحنك فيغطي كل اجزاء الوجه[1].

وها هنا أيضاً يمكن ان يزودنا كتاب الديوجي (اعلام الصناع المواصلة) بالشيء الكثير، وهناك بصدد النقود الملحق رقم ١٥ من كتاب (الموصل في العهد العثماني) لعماد عبد السلام رؤوف[2] والذي يتضمن عرضا مفصلا قيما عن اهم العملات المستخدمة في الموصل في العهد العثماني، واقيامها.

العادات والتقاليد الاجتماعية :

تبلورت في الموصل عبر قرونها الاخيرة ممارسات وفعاليات اجتماعية تميزت بدقائقها وتفاصيلها واصبحت – بمرور الزمن – جزءا اساسيا من حياة المدينة وشخصيتها وملمحا واضحا من ملامحها التراثية.

هنالك تقاليد الختان، الزواج، البناء. هنالك احتفالات رمضان والاعياد والمولد النبوي الشريف والمناسبات الدينية الاخرى. هنالك العادات والفعاليات الحرفية المختلفة في الاسواق والمقاهي والحمامات. هنالك العاب الصبيان في الازقة والحارات. وهنالك – أيضاً – تقاليد المواسم والفصول وبخاصة في الربيع والخريف حيث تغدو السفرات والنزهات القصيرة أو الطويلة جزءا اصيلا من ممارسات المدينة. وغير هذه التقاليد والفعاليات الشيء الكثير.

والان وعبر العقود الاخيرة والتغير الاجتماعي السريع والعنيف الذي تشهده المدينة من خلال الاتصال المتزايد بمعطيات الحياة الغربية المعاصرة. الان بدات هذه التقاليد تذوب وتتلاشى بالتدريج، وهي تجر ذيولها تاركة الميدان لتقاليد اكثر حداثة. وبعد قرن أو قرنين ستختفي كلية عن العيان.

ومن ثم تغدو محاولة دراستها وتثبيتها ضرورة من ضرورات حماية التراث الموصلي من الانقطاع والضياع. ويتوجب ان تبدأ هذه المحاولة بالسرعة الممكنة لكي تبنى بشكل اكثر دقة وامانة على شهادات بقايا الجيل الذي عاش هذه التقاليد أو رآها وسمعها. وعلى ضوء الذبالة

---

(١) سهيل قاشا : المرجع السابق ، ص ٣٩٤–٣٩٥ ، بكنغهام : المرجع السابق ، ص ٦٦ ، احمد الصوفي ، المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١–٣٢.

(٢) ص ٥١٥–٥٦٥.

التي لا تزال تشتعل في بعض هذه الممارسات الاجتماعية قبل ان تخفق الخفقة الاخيرة وتنتهي إلى انطفاء[1].

هنالك محاولات قامت بها مؤسسات التربية في مهرجانات الربيع لتثبيت بعض ملامح هذا التراث وعرضه فنيا. ولكن المطلوب هو اكثر من هذا. دراسة تاريخية وميدانية علمية تسعى إلى تثبيت الوقائع وتنظيمها وتحليلها باكبر قدر من الدقة والموضوعية. وهي مهمة تقع ولا ريب على عاتق المؤسسات الاثارية والتراثية، من اجل ان تستكمل – بها – سائر دراساتها ومحاولاتها لاظهار التراث الموصلي، وحصره، وحمايته.

محاولات اولية لاغراض التنفيذ :

وهذه – اخيرا – بعض الملاحظات الاولية لاغراض التنفيذ العملي يمكن ان يضاف اليها – مستقبلا – ملاحظات ومؤشرات اخرى :

١– تنظيم احصائية شبه نهائية بالموجود حاليا من معطيات تراثية موصلية تتعلق بالعصر العثماني على وجه التحديد، اذ ان ما سبق يمكن ان يندرج تحت الاهتمامات والمتابعات الاثارية.

٢– تدوين ملاحظات مركزة حول الاهمية التاريخية لهذه المعطيات.

٣– وضع تخطيطات (نموذجية) لهذه المعطيات لاغراض الحماية والتثبيت التاريخي والنشر.

٤– رسم واعتماد خارطة (أو خرائط) شاملة لهذه المعطيات تبين مواقعها في الزمان والمكان، وما تم أو سيتم بصددها. ومن اجل تنفيذ هذه الخارطة يتوجب القيام بعملية مسح ميداني لتراثيات القرون الاخيرة.

٥ – الاتصال بالمؤسسات ذات العلاقة والتنسيق معها وفق الصيغ التالية :

أ– حماية المعطيات التراثية من الهدم او التخريب أو الاندثار التدريجي.

ب– بناء مجمعات حديثة تعتمد التصاميم الموصلية القديمة اسوة بما يحدث في مدينة بغداد فتحقق بذلك الاهداف العمرانية والجمالية والتراثية، ويمكن ان يضم مجمع كهذا يستحسن ان يقام في باب الطوب، المنشآت التالية : دارا، وخانا، ومقهى، ومطعما، وسوقا (أو قيصرية) ومسجدا، وقناطر، وابوابا، وفق الطرز التراثية.

ج– استملاك عدد من هذه المعطيات وتحويلها إلى مرافق تراثية بعد صيانتها.

---

(١) قدم احمد الصوفي في كتابه (خطط الموصل) ، جزء ٢ ، ص ٢٢–٦١ فصلا عن (ملامح المجتمع الموصلي) تضمن الكثير من الحقائق والعروض القيمة الا ان محاولته امتدت لكي تشمل هذا المجتمع عبر التاريخ في عصوره المختلفة ، الامر الذي يجعل تثبيت هذه الملامح عبر القرون الاخيرة فحسب في بحث آخر أمراً ضروريا.

فلسطين في الادب الجغرافي العربي

*** قدم هذا البحث إلى المؤتمر الثالث**

لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)

الذي عقدته الجامعة الاردنية بعمان في نيسان ١٩٨٠

(١)

كسبت فلسطين اهميتها في معطيات الادب الجغرافي لاكثر من سبب : فهناك مكانتها الدينية العريقة، ووجود العديد من المنشآت العمرانية والبقايا الاثارية اللتي تخدم هذا الجانب وترفده، وهناك موقعها الجغرافي الممتاز فهي بوابة القادمين من آسيا في طريقهم إلى افريقيا عبر مصر، وبالعكس، وهي احدى المنافذ الاسيوية المطلة على البحر المتوسط باتجاه اوربا وهي الممر الذي لابد من اجتيازه، منذ قرون وقرون، لمعظم القوافل المتحركة من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وهي فضلا عن هذا وذاك ذات مكان متوسط عبر مساحات العالم القديم على المستويين السياسي والعسكري والحضاري، وربما كان هذا احد الاسباب الرئيسية لاختيارها منطلقا، أو مستقرا، للعديد من النبوات. وهنالك – أيضاً – العديد من الظواهر الطبيعية المتفردة التي تسترعي الانتباه. وثمة – اخيرا – الغرائب التي اولع بعض جغرافيينا بشد الرحال اليها ووصفها بقدر من المبالغة التي تخرج بالظاهرة الطبيعية عن ابعادها المعقولة وتضيف اليها من سحر الخيال وتهويل الشائعة ما يجعلها اقرب إلى الخرافة. بل ان بعض هذا الذي وصف بغرائب المشاهدات لا اساس له مطلقا من الصواب وانما هو وليد تشوق للمجهول، أو تفسير شاذ لا تقبله مسلمات العقل ولا يصمد للنقد.

ومهما يكن من امر فان فلسطين قد شدت، عبر قرون تالقنا الحضاري، انظار الكثير من رحالتنا وجغرافيينا فشدوا اليها الرحال، هدفا بحد ذاته، أو طريقا إلى اهداف جغرافية اخرى. وقدموا لنا عبر رحلاتهم ومشاهداتهم الكثير من المعطيات التي يستطيع الباحث المعاصر ان يتكيء عليها إلى حد كبير لتقديم صورة (فلسطينية) مستمدة من هذه المعطيات.

وثمة منهجان اعتمدهما الرحالة والجغرافيون لعرض مشاهداتهم الفلسطينية يقوم اولهما على عرض افقي يحاول ان يشمل، بنظرة واحدة، كافة الظواهر والانشطة، فيمسها مسا خفيفا بنوع من الوصف الخارجي السريع الذي يعطي الملامح العامة البارزة على السطح ولا يكاد يتوغل إلى الاعماق للبحث عن التفاصيل والجذور. بينما يقوم المنهج الثاني على التوغل العمقي اوالعمودي في هذه الظاهرة أو تلك وعبر هذا النشاط أو ذاك، وهو بهذا قد يغفل الكثير من الظواهر والانشطة الاخرى المنتشرة هنا وهناك، ولكنه يعوض عن ذلك بتقديم مادة اغزر ورؤية اكثر نفاذا للمسائل التي يقف عندها حيث يمنحنا ما فقدناه هناك : التفاصيل والجذور.

والمنهجان – في حقيقة الامر – يكمل احدهما الاخر، وكلاهما عون للباحث المعاصر الذي يسعى إلى استخراج صورة عن فلسطين من بطون المصادر الجغرافية، تتميز بالامتداد والعمق في الوقت نفسه، ومع ذلك فان هنالك الكثير من الثغرات تركت عبر هذه المصادر دون

سعي جاد لسدها. وهنالك مساحات واسعة في هذا الجانب أو ذاك من جغرافية فلسطين نبحث عمن يلقي عليها ضوءا فلا نكاد نعثر على شيء.

وايا ما كان الامر فان الطريقة التي سيعتمدها هذا البحث الموجز الذي تقتضيه مناسبة كهذه، يقوم على تجاوز الوصف البلداني السهل الذي يقف عند كل موقع أو مدينة فلا يغادرها الا بعد ان يسرد كل، أو جل، النصوص التي قدمتها المصادر الجغرافية عنها، سواءً كانت تعالج امرا ثقافيا ام مماسة دينية ام نشاطا اقتصاديا ام تنظيما اداريا. إلى اخره. وهذا سيؤول – بطبيعة الحال – إلى تجزيء الوصف وتقطيع الجغرافية الفلسطينية إلى وحدات بلدانية مستقلة كأن ليس بين الواحدة منها وشقيقاتها رابطة من نسب أو قربى. فضلا عن ان الكثير من الظواهر والانشطة كوصف البحر الميت، أو نهر الاردن، مثلا، وكالحديث عن النشاط الزراعي، وما شابه ذلك من مسائل عامة، تخرج عن نطاق بلد بعينه، وتقتضي متابعة في المجال الارحب. مجال الخارطة الفلسطينية على امتدادها.

ومن ثم فليس هناك غير طريق واحد يقوم على متابعة المظاهر والانشطة وقطاعات الحياة المختلفة على امتداد الخارطة الفلسطينية من اجل منحها حياة اكثر تدفقا وغنى، ومن اجل تكوين صورة عن فلسطين اكثر اصالة وامتدادا، واقدر على الافصاح عن شخصية الموقع الجغرافي إذا صح التعبير.

وسوف يتم – بطبيعة الحال – تجاوز كل ما هو زمني (تاريخي) موقوت في روايات جغرافيينا لانه من قبيل المتغيرات سريعة المدى، والتأكيد – بدلا من ذلك – على المعطيات الجغرافية الاكثر ديمومة، ما دام ان هذا البحث ينصب على الجغرافية لا على التاريخ، رغم ان المصادر التي اعتمدت في هذا المجال تمزج – احيانا – بين هذا وذاك.

ومن اجل ان نتصور مدى انتشار المادة الجغرافية لمصادرنا العربية على المساحة الفلسطينية لا بد ان نسترجع في الاذهان آخر التقسيمات الادارية لفلسطين قبل ان تجتاحها جائحة الصهيونية ومن وراءها الاستعمار فهي تتضمن كافة المدن الرئيسية باسمائها العربية الاصيلة المرادفة لما تضمنته المصادر. واليكموما :

اولا : اللواء الشمالي، ويضم الاقضية التالية :

(١) حيفا (مركز اللواء) (٢) عكا (٣) زمارين(٤) الناصرة (٥) طبرية (٦) صفد.

ثانيا : لواء السامرة ، ويضم الاقضية التالية :

(١) نابلس (مركز اللواء) (٢) جنين (٣) طول كرم (٤) بيسان.

ثالثا : لواء االقدس – يافا، ويضم الاقضية التالية :

(١) القدس (العاصمة) (٢) رام الله (٣) بيت لحم (٤) اريحا (٥) يافا (٦) الرملة.

رابعا : اللواء الجنوبي، ويضم الاقضية التالية :

(١) غزة (مركز اللواء)(٢) المجدل (٣) الخليل (٤) بئر سبع[١].

(٢)

عن جغرافية فلسطين الطبيعية التي تنعكس معطياتها سلبا وايجابا على سائر المظاهر والانشطة، نلتقي بحشد من النصوص تتراوح بين الاشارة المركزة العابرة، وبين العرض التفصيلي. ويقف جغرافيونا عند جوانب منها فيطيلون الوقوف : بحيرة طبرية، المياه المعدنية الساخنة، نهر الاردن، الغور، البحر الميت، خليج العقبة. الجبال والصحارى والعيون.

تمتد بحيرة طبرية حيث تقع على ساحلها مدينة طبرية المستطيلة، مسافة اثني عشر ميلا (ستة فراسخ) اما عرضها فستة اميال (اكثر من ثلاثة فراسخ قليلا)، تكتنفها الجبال، والى قريب منها جبل الطور وعلى جانب من شواطئها تتفجر ينابيع حارة شديدة االحرارة، وبخاصة عينها الجنوبية " التي تسلق البيض وتنضج اللحم "، تسمى (الحمامات) وماؤها ملحي كبريتي يتخذ علاجا طبيعيا لترهل البدن والجرب الرطب وتزايد البلغم[٢]. وثلاثة ايام للاستحمام بهذا الماء تكفي – في نظر ابن الوردي – لكي تشفي اهل البلاد مما يعانونه[٣].

يصفها ابن جبير بانها بحيرة مشهورة، وبان ماءها عذب، ويتحدث عن تضارب الاقوال في سعتها وهو اذ يشير إلى مبلغ طولها بانه ستة فراسخ ومبلغ عرضها بانه ثلاثة فراسخ أو اربعة يعلق بالقول بان هذه اقربها إلى الصحة " لاننا لم نعاينها "[٤] وهذه لا ريب واحدة من اللمسات النقدية في معطيات جغرافيينا سنلتقي بها بين الحين والحين، تخفف في نزوعها العلمي بعضا من الغلواء التي يعانيها بعض هؤلاء الجغرافيين وهم يتحدثون عن عدد من المظاهر والاشياء بما يخرج بها عن حجمها الحقيقي. ويقول ياقوت بانه راى طبرية مرارا " وهي كالبركة يحيط بها الجبل، ويصب فيها فضلات انهار كثيرة تجيء من جهة بانياس والساحل والاردن، وينفصل عنها نهر عظيم (هو نهر الاردن). ومدينة طبرية في لحف الجبل مشرقة على البحر

---

(١) حسين روحي : المختصر في جغرافية فلسطين ، القدس ١٩٣٢.

(٢) الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ١١٩ ، ٢١١–٢١٢ ، اسحق بن الحسين : آكام المرجان ، ص ٢٢ ، ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٢.

(٣) خريدة العجائب ، ص ٢٤ ، وانظر : العمري : مسالك الابصار ٨٢/١.

(٤) رحلة ، ص ٢٩٢.

وماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة، ثقيل، وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتيء يزعمون بانه قبر سليمان بن داود (عليه السلام)، وبين البحيرة والبيت المقدس نحو من خمسين ميلا "[1].

ويحدد الاصطخري موقع المنابع الحارة بانه على نحو فرسخين من مدينة طبريا، حتى إذا ما انتهى الماء إلى المدينة ظل محتفظا بحرارته الشديدة رغم ما دخله من الفتور بطول السير، وانه ليمعط الجلود إذا ما طرحت فيه، ولا يمكن استعماله الا باضافة ماء بارد اليه، وفي داخل المدينة يستفاد من هذا الماء في الحمامات واماكن الوضوء[2]. ويشير العمري إلى ان هذه المياه الحارة تعرف بحمام طبرية " وللناس فيها اكاذيب. وهي صورة تنور مثل تنور الكلس، تكون سعته نحو عشرة اذرع تقريبا، يخرج منه ماء يدير حجري رحا، مهما وضع فيه احترق لافراط حرارته، وقد استخرج منه جدول في عرض الجبل يمتد نحو الف ذراع تقريبا لتقل، ببعد المدى، حرارته. ثم يأتي بيتين مسقوفين بالحجر احدهما لاستحمام الرجال والاخر لاستحمام النساء. والحمة ماؤها مملوح مكبرت"[3].

ويمنحنا المقدسي المزيد من التفاصيل عن هذه المياه الحارة وعن فوائدها الصحية فيقول بان عين طبرية تعم اكثرحمامات البلد، وقد شق إلى كل حمام منها نهر فبخاره يحمي البيوت فلا يحتاج إلى وقيد. وفي البيت الاول ماء بارد مقدار ما يتطهرون به، ومن اغتسل بالماء الحار ثلاثة ايام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسور أو أي علة تكون، برأ باذن الله، وسمعت الطبرانيين يذكرون بانه كان هناك لكل علة بيت، فكان من به تلك العلة واغتسل فيه برأ[4].

وينصب في البحيرة نهر الاردن، الذي يسمى احيانا بالشريعة، وهو نهر غزير الماء ينحدر من الشمال قريبا من بانياس حتى إذا بلغ الحولة كون هناك بحيرة تسمى بحيرة قدس نسبة إلى مدينة عبرية لا تزال بقاياها في الجبل على ما يقوله الدمشقي، وفي هذه البحيرة تنصب انهر وعيون اخرى، وما يلبث نهر الاردن ان يغادر الحولة باتجاه طبرية حيث يصب فيها ثم يجتازها إلى الغور حبيث يلتقي فيه بعد قليل نهر خارج من الحمة التي تشتهر عينها هي الاخرى بان

---

(1) المصدر السابق ٥١٥/١ وانظر ياقوت : المشترك ، ص ٣٨.

(2) مسالك الممالك ، ص ٥٨-٥٩ وانظر : ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٦٠ وابن الوردي : خريدة ، ص ٢٤ ، واليعقوبي : البلدان ، ص ٣٢٧.

(3) مسالك الابصار ٨٩/١.

(4) احسن التقاسيم ، ص ١٨٥ ولمزيد من التفاصيل عن بحيرة طبرية وعيونها انظر : ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٧ والهروي : الاشارات في معرفة الزيارات ، ص ٢٦ ، ٢٨ ، وياقوت : معجم البلدان ٥٠٩/٣ ، والقزويني : آثار البلاد ، ص ١٤٥، وابي الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٤٣.

فيها منافع كثيرة حيث يقصدها الناس لعلاج الكثير من الامراض. وكلما مضى نهر الاردن في طريقه جنوبا كلما غزرت مياهه اذ ينصب فيه من عيون بيسان وغيرها الشيء الكثير، حتى إذا بلغ البحر الميت القى عصا الترحال فيه لا يغادره ابدا[١]. ان الشريعة هذا " كانه في الاعتبار فلك الدائرة، يطلع اول الغور من بحيرة قدس، ويتوسط بحيرة طبرية، ويغور في بحيرة زغر : البحر الميت "[٢].

وينقل ياقوت بان الاردن هو اردنان، الاردن الكبير والاردن الصغير " فاما الكبير فهو نهر يصب إلى بحيرة طبرية، بينه وبين طبرية لمن عبر البحيرة في زورق، اثنا عشر ميلا، تجتمع فيه المياه من جبال وعيون، فتجري في هذا النهر، فتسقي اكثر ضياع جند الاردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور ثم تنصب تلك المياه إلى البحيرة التي عند طبرية ويمر عند الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياعها وقراها الكثيرة ومنها بيسان وقراوا واريحا والعوجاء وغير ذلك. وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين. ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهرا واحدا فيسقي ضياع الغور ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) في طرف الغور الغربي "[٣].

يمتد الغور ما بين بحيرة طبرية والبحر الميت وتقبع فيه مدينتا بيسان واريحا (التي يسميها الاصطخري ريحا) وغيرهما ويصفه بانه يقع بين جبلين وبانه غائر في الارض جدا وان به عيونا وانهارا ونخلا، ولاعتدال مناخه لا يرى سقوط الثلج فيه ابدا، وبعض الغور من حد الاردن، فاذا ما جاوزت بيسان كان من حد فلسطين، وهو مقسم إلى ثلاثة اقسام : الاعلى والاوسط والاسفل، ويبلغ طوله نحوا من اربعة ايام، وعرضه في مداه الاوسع نحو من يوم واحد وينبثق عنه ممر طويل يقود السالك فيه إلى ايلة على خليج العقبة، ولكثرة ما تميز به الغور من الخصائص الحسنة عده الجغرافيون " من نواحي العمران الجليلة "[٤] رغم انه وخم شديد الحر غير طيب الماء[٥].

---

(١) الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ١٠٧–١٠٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨–١٠٩ ، الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ١.

(٣) معجم البلدان ٢٠٠/١ ، وانظر العمري : مسالك ٨٢/١.

(٤) الاصطخري : مسالك ، ص ٥٦ ، ٥٨–٥٩ ، ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٥٧–١٥٨ ، ١٦٠ ، الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠١ ، ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٢٦.

(٥) ياقوت : معجم ٨٢٢/٣ المشترك ، ص ٣٢٦.

وتختلف تسمية البحر الميت بين جغرافي وآخر، فبعضهم يسميه بحيرة زغر،نسبة إلى صغرى بنات لوط (عليه السلام)[١] ، أو البحيرة المالحة، أو المقلوبة وبعضهم الاخر يسميهم البحيرة المنتنة، وفي احيان كثيرة يسمى بحيرة لوط، تلك التي " لا يعيش فيها حيوان، ولا ينبت حولها نبات ". ويدهش الدمشقي كيف ان ماءها لا يزيد في الشتاء بسبب زيادة المياه الكثيرة المنحدرة اليها، وكيف انه لا ينقص في الصيف!! ويحاول ان يعثر على الجواب، يقول "للناس في مغيض الماء فيها اقوال، فمنهم من قال ان هذا الماء بحر ارض بعيدة يخرج فيها فيسقيها، ويزرعوا عليه ويشربوا منه مسيرة شهرين، ومنهم من قال ان ارضها شديدة الحرارة ومعادنها كبريتية ملتهبة فهي لا تزال ترقأ بخارا متحللا يخلقه الماء الداخل ويتحلل بخارا كذلك. وقيل بل هي خسفة من الارض لا قرار لها إلى البهموت، والله اعلم "[٢]. ويفسر ياقوت سبب تسميتها بالمنتنة، ويبالغ في الوصف بما يخرج عن حدود الواقع، فيقول " هي بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شيء ولا يتولد فيها حيوان، ورائحتها في غاية النتن، وقد تهيج في بعض الاعوام فيهلك كل ما يقاربها من الحيوان الانسي وغيره، حتى تخلو القرى المجاورة لها زمانا الى ان يجيئها قوم آخرون لا رغبة لهم في الحياة فيسكنونها، واذا وقع في هذه البحيرة كائنا لم ينتفع به كائنا ما كان، فانها تفسده، حتى الحطب فان الرياح تلقيه على ساحلها فيؤخذ ويشعل فلا تعمل النار فيه "[٣].

واذ يبدو البحر الميت ملعونا لا فائدة منه في نظر ياقوت. نراه في نظر بعض الجغرافيين الاخرين يقدم عددا من الفوائد، فهو طريق سهل للمواصلات حيث تجتازه بين الحين والحين سفن صغيرة يسافر فيها إلى تلك الناحية وتحمل عليها الغلات والثمار إلى اريحا وسائر اعمال الغور[٤] وهو يقذف بين الحين والاخر بمادة سوداء لينة تخرج من قاعها فيأخذها السكان، ويقطعونها ويحملونها إلى المدن والولايات حيث تستعمل في حماية الاشجار، وبخاصة الكروم والتين، من الدود والحشرات، باطلاء جذوعها بهذه المادة التي تباع – كذلك – لدى العطارين لكل من يريد ان يبعد دودة تصيب البذور تدعى النقرة[٥]. ويعدد عبد الغني النابلسي منافع هذه المادة القيرية المسماة بالحمر أو القفر اليهودي نسبة إلى قرية كانت هناك، فيضيف إلى فوائده الزراعية فوائد طبية عديدة، فهو يستخدم لتضميد الكسور والاوجاع العارضة في النساء وللسعال

---

(١) ياقوت : معجم ٧٥٢/٢.

(٢) نخبة الدهر ١٠٧–١٠٨.

(٣) معجم في ٥١٦/١.

(٤) الادريسي : نزهة ، ص ١.

(٥) ناصر خسرو : سفرمانة ، ص١٧ وانظر نخبة الدهر ، ص ٨٢ ، وابو الفدا : تقويم ، ص ٢٢٨.

المزمن وضيق النفس ونهش الهوام وعرق النساء والاسهال المزمن والنزلات ووجع الاسنان، فضلا عن ان دخانه يطرد الحيات والعقارب والهوام، ويتحدث كيف انه يستخرج – كذلك– من ساحل البحر الميت حيث يصفى مما اختلط به من الحصا والتراب بالماء الحار والنار، وكيف ان رائحته تشبه القير العراقي[١].

يبلغ طول البحيرة سبعة فراسخ وعرضها الاعرض نحو ثلاثة، " وقيل ان طولها ستون ميلا وعرضها اثنا عشر ميلا وهو الصحيح "[٢]. وكانت تقبع على شواطئها – يوما – خمس مدن هي صعدة، صعبة، عمرة، دوما، وسدوم، والاخرى اكبرها واصلها في الفساد[٣].

وهنالك فضلا عن البحيرات الكبيرة آنفة الذكر، اشارات للعديد من العيون والجداول التي يستقي منها اهل فلسطين ماءهم العذب. فثمة عيون عسقلان[٤] وعيون اريحا[٥] وجنين[٦] وانهار وعيون بيسان التي اشتهرت بخصبها[٧] ، وعين الماء التي تتفجر من الصخر في الخليل وينقل ماؤها عبر مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة اهل القرية وغيرهم من الزائرين[٨]. وعين دير الطور، بين طبرية واللجون، والتي تنبع بماء غزير. ونهر عوجاء بين ارسوف والرملة قريبا من الساحل[٩]. وعيون قيسارية الجارية[١٠].

وهنالك جب طبرية الكبير العميق الذي تنبع مياهه من باطن الارض وترفدها –كذلك– مياه الامطار[١١]. وفي شرقي عكا تتفجر عين تعرف بعين البقر ينزل اليها في درج[١٢].

---

(١) الحضرة السنية في الرحلة القدسية ، ص ٢٣٤.

(٢) الدمشقي : نخبة ، ص ١٢١.

(٣) نفسه ، ص ١٢١.

(٤) اسحق بن حسين : آكام المرجان ، ص ٢٢ ، ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٥٩–٦٠.

(٥) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٤.

(٦) ياقوت : معجم ١٨٠/٢.

(٧) ابو الفداء : تقويم ٣٤٣.

(٨) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٣٢.

(٩) العمري : مسالك ٣٣٧/١ ، ياقوت : معجم ٧٣٣/٣.

(١٠) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، ص ١٨.

(١١) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٢.

(١٢) نفسه ، ص ٦١ وانظر ابن جبير : رحلة ، ص ٢٩٢.

فضلا عن نهر المقطع الصغير الذي ينبع من جبل الطور ويصب في البحرين بين حيفا وعكا[١] ، والنهر العذب الذي يشق عجلون فيشطرها شطرين[٢]. وتأخذ نابلس ماءها من شبكة من القنوات[٣]. وهناك عين سلوان في القدس التي يصفها الدمشقي بانها " تجري بمقدار معلوم، وبعد مضي كل ثلاث ساعات واكثر تمد حتى يرتفع ماؤها في مجراها نحو ثلاث قامات عما كان يجزر، ثم يعود إلى حاله بعد نحو ست ساعات، ثم تمد وتجزر كذلك إلى ابد الدهر "[٤].

ويصف المقدسي كثرة الماء فيقول : " ليس ببيت المقدس امكن من الماء. قل دار ليس فيها صهريج أو اكثر، وبها ثلاث برك عظيمة عليها حماماتهم. وفي المسجد عشرون جبا متبحرة. وقل حارة الا وفيها جب مسبل، وقد عمد إلى واد فجعل بركتان يجتمع اليهما السيول في الشتاء وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها "[٥]. ويقف الدمشقي طويلا عندما يسميه بالثجان على طريق ايلة للقادمين من غزة " وهو واد فيه عيون ماء كثيرة تمد في ايام الصيف قليلا، فاذا كانت أيام الشتاء مدت كثيرا. وفي هذا الوادي عين بقدر السطل النحاس الذي يسقون فيه الخيل، وهو في بلاطة كبيرة مدورة مقدار ستة اذرع في ستة، وفيها مقر محفور فيه ماء حلو ملؤه، لا يخرج منه شيء البتة، فاذا ملأت الاسطل نظرت المقر كأن لم يؤخذ منه شيء، والناس جميعا يملأون منه. كان هذا دأبه دائما على مر الايام والليالي، وانا رايت هذا عيانا وملأت منه واهل الركب من غزة وغيرهم، وذكر ذلك العرب أيضاً، قال لي من اثق بكلامه : نحن وآباؤنا واجدادنا من العرب ملأنا من هذا وهو على هذه الحالة "[٦].

ولا ينسى الجغرافيون – بطبيعة الحال – ان يشيروا إلى المقادير الوافرة التي تتلقاها فلسطين من مصدر آخر للمياه وذلك هو الامطار[٧].

---

(١) التطيلي : رحلة ، ص ٩٣ وانظر هامش رقم –٢– من الصفحة نفسها.

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦١ ، الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠٠–٢٠١.

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦٠–٦١.

(٤) نخبة الدهر ، ص ١١٩ ، ياقوت : معجم ١٢٥/٣ وانظر خسرو سفرنامة ، ص ٢١.

(٥) نخبة الدهر ، ص ١٦٥ ، ياقوت معجم : ٥٩٣/٤ ، ٥٩٨.

(٦) نخبة الدهر ، ص ١١٩–١٢٠.

(٧) انظر : الاصطخري : مسالك ، ص ٥٦ وابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٥٧–١٥٨ ، اسحق ابن الحسين : آكام المرجان ، ص ١٣ ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٣ والدمشقي نخبة ، ص ٢١٢.

(٣)

وكان من الطبيعي ان تتمخض هذه الوفرة من المياه عن نشاط زراعي كثيف بلغ خراجه السنوي في منتصف القرن الثالث للهجرة نصف مليون دينار[١] ، واستمر على هذا المعدل حتى القرن التالي[٢]. وقد لفت هذا النشاط نظر الجغرافيين فاشاروا اليه، وقالوا عن فلسطين بانها من اخصب بلاد الشام واكثرها عمرانا على صغر رقعتها[٣] ، ثم وقفوا عند اشهرمدنها فحدثونا عما شهدوه فيها من زروع واثمار. فالقدس تعد من اخصب بلدان فلسطين[٤] تحيط بها بساتين وكروم ومزارع واشجار وفاكهة وزيتون[٥]. وتنتشر حولها قرى كثيرة الزروع والاشجار[٦] وقد ازدهرت فيها فيها زراعة الاترج واللوز والجوز والرطب والتين والموز فضلا عن السماق[٧] ، وعلى بعد فرسخين منها شهد ناصر خسرو اربع قرى متجاورة سميت الفراديس لكثرة حدائقها وبساتينها وجمال موقعها[٨] وبسبب من كثرة خيراتها رخصت فيها الاسعار، سيما وان معظم مزروعاتها تعتمد في سقيها على مياه الامطار. الا ان اكثر مزروعات القدس وفرة، ولا شك، الزيتون الذي يستخرج منه زيت الزيتون، ولما زار ناصر خسرو القدس قال ان فيها ارباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف من زيت الزيتون، يحفظونها في الاحواض والابار ويصدرونها إلى اطراف العالم[٩].

ولا تقل عنها نابلس كثرة اشجار وبخاصة الزيتون الذي يستخرج زيته ويحمل إلى مصر ودمشق وغيرهما، فضلا عن البطيخ الاصفر المنسوب اليها والذي اشتهر بطعمه اللذيذ[١٠] ، ويصفها الدمشقي بانها قصر في بستان[١١] . وبلغ من ازدهارها الزراعي ان اقليمها اشتمل على

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٧٨.

(٢) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٨٩.

(٣) الاصطخري : مسالك ، ص ٥٨ ، ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٥٩.

(٤) الاصطخري : نفسه ، ص ٥٦–٥٧ ، ابن حوقل ، نفسه ، ص ١٥٨.

(٥) اسحق ابن الحسين : آكام المرجان ، ص ١٣.

(٦) ابن عبد الحق : مراصد ، ص ١٣٢.

(٧) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٥٦ ، ياقوت : معجم ١٠٠٥/٤.

(٨) سفرنامة ، ص ٣٢.

(٩) نفسه ، ص ١٩.

(١٠) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٠–٦١ ، الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠٠–٢٠١.

(١١) نخبة ، ص ٢٠٠–٢٠١.

ثلاثمائة قرية[١]. وكان يقع إلى قريب من نابلس موقع يدعى عسكر الزيتون اشتهر بكثرة زيتونه[٢] وموقع آخر يدعى ياسوف وصف بكثرة رمانه[٣].

وازدهرت في اريحا زراعة النخيل والموز والريحان وقصب السكر[٤] ، فضلا عن النيات المسمى بالوسمة أو البلسم أو العيلج الذي يستخرج منه صبغ النيل الغامق[٥]. كما اشتهرت بيسان بكثرة بساتينها وبخاصة النخيل والرز[٦] ، وعرفت الرملة بكثرة فواكهها وخاصة التين والنخيل[٧] واشتهر تينها بانه لا يوجد له مثيل في أي مكان آخر، وكانت تصدر منه كميات كبيرة إلى مختلف البلاد[٨]. وتقع الخليل في وهدة بين جبلين وهي ملتئمة الاشجار كثيرة الثمار[٩]، وبخاصة الاعناب والتفاح والزيتون والتين والخرنوب، والتي اشتهرت بكثرتها وكانت تصدر منها كميات كبيرة إلى مصر[١٠] ، كما ازدهرت فيها زراعة الشعير[١١].

فاذا يممنا وجوهنا قبل الساحل ما كان لنا ان نصل إلى عكا الا بعد اجتياز بساتينها الملآى باشجار الفواكه، وبخاصة الزيتون وضياعها العديدة التي تكتنفها الجبال[١٢]. وانتشرت في حيفا اشجار الفواكه وبخاصة النخيل[١٣] ، وعلى بعد سبعة فراسخ من عكا تقع قيسارية التي ازدهرت فيها زراعة الفواكه وبخاصة النخيل والحمضيات، وقد وصفها المقدسي بانه ليس على

---

(١) الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٦.

(٢) ياقوت : معجم ٦٧٥/٣.

(٣) نفسه ١٠٠٢/٤.

(٤) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٤ القزويني : آثار ، ص ٩٥.

(٥) ابو الفدا : تقويم ، ص ٢٣٦ ، الادريسي : نزهة ، ص ٢.

(٦) الادريسي : نفس الصفحة ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٢٦ ، ١٨٠ ، ابو الفدا : تقويم ، ص٢٣٤. ص٢٣٤.

(٧) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٦٤.

(٨) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٣٢.

(٩) ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٤ ، الاصطخري : مسالك ، ص ٥٧–٥٨ ، ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٥٨–١٥٩.

(١٠) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٢٧ ، ابو الفدا : تقويم ، ص ٢٤١ ، ناصر خسرو : سفرنامة ، ص٣٢.

(١١) ناصر خسرو : نفس الصفحة.

(١٢) ابن جبير : رحلة ، ص ٢٩٢ ، المقدسي : التقاسيم ، ص ١٦٢.

(١٣) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ١٨.

بحر الروم (المتوسط) بلد اجمل ولا اكثر خيرات منها وانها تفور نعما[١]. ولا تقل خصبا عنها عسقلان "ذات البساتين والثمار "والتي يكثر فيها الزيتون والكروم واللوز والرمان[٢] ، فضلا عن النخيل[٣] ، ووصفت غزة بانها " مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود"، وقد ازدهرت فيها بشكل خاص زراعة الكروم[٤].

وكثرت في منطقة صفد – شمالا – اشجار الكمثري المسكي المعطر الرائحة، الطيب الطعم، والاترج الذي اشتهر بحجمه الكبير الذي يبلغ وزن الواحدة منه احيانا نحو من ستة ارطال دمشقية، على عهدة الدمشقي[٥]. وهناك – أيضاً – الكروم والزيتون والبطم والخروب والسفرجل وانواع كثيرة من الفواكه[٦] ، وبلغ من اتساع نشاطها الزراعي ان اقليمها كان يضم – حسبما ذكر الظاهري – الفا ومائتي قرية[٧].

وعموما، فان سائر جبال فلسطين وسهولها ملأى – كما يقول الاصطخري – بالزيتون والتين والجميز والعنب وسائر الفواكه[٨] ، فضلا عن قصب السكر الذي ازدهرت زراعته في الغور[٩] ، والقطن الذي كان يزرع في اطراف القدس ويصدر إلى عدد من البلاد[١٠].

وفي تعليق طريف للمقدسي نعرف كم كان الانتاج الزراعي في فلسطين مزدهرا ومتنوعا فهو يقول : " اعلم انه قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئا، ولا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا تؤخذ الا بها، والسبع الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع الا بها، وقد يجتمع اكثرها في غيرها مثل. انجاص الكافوري وتين السباعي والدمشقي والجميز

---

(١) احسن التقاسيم ، ص ١٧٤ ، ناصر خسرو نفس الصفحة.

(٢) ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٣–٢٤.

(٣) اسحق بن الحسين : آكام المرجان ، ص ٢٢.

(٤) الدمشقي : نخبة ، ص ٢١٣ ، الظاهري : زبدة ، ص ٤٢ ، ابو الفدا : تقويم ، ص ٢٣٩.

(٥) نخبة ، ص ٢١١.

(٦) نفسه ، ص ٢١١.

(٧) زبدة ، ص ٤٤.

(٨) مسالك ، ص ٥٧–٥٨ ، ياقوت : معجم ٦٥٧/٢ ، العمري : مسالك ٣٣٧/١ وانظر : ابن حوقل: صورة الارض ، ص ١٥٨–١٥٩.

(٩) ياقوت : معجم ٢٠٠/١.

(١٠) المقدسي : التقاسيم ، ص ١٨٠.

والخرنوب والعناب وقصب السكر والتفاح الشامي والرطب والزيتون والاترج والنيل والنارنج والنبق والجوز واللوز والموز والسماق والكرنب والكماة وعنب العاصمي. الخ "[١].

ومن هذا الانتاج الزراعي الغزير نما وانتشر عدد من الصناعات المحلية كان ابرزها ولا ريب زيت الزيتون الذي كان يصدر إلى الديار المصرية والشامية والى الحجاز، وكان يحمل منه إلى جامع بني امية في كل سنة الف قنطار دمشقي ويقول ناصر خسرو الذي زار القدس عام ٤٣٨ هـ ان فيها من ارباب العائلات من يملك الواحد منهم خمسين الف منّ من زيت الزيتون، يحفظونها في الابار والاحواض ويصدرونها إلى كافة انحاء العالم، كما يصف ازدهار الحركة الصناعية في القدس فيذكر ان فيها صناعا كثيرون وان لكل جماعة منهم سوقا خاصة[٢]. وبسبب كثرة الزيتون ازدهرت – كذلك – صناعة الصابون الرقي الذي كان يصدر منه –كذلك– كميات كبيرة إلى عدد من البلاد الاسلامية وجزر البحر المتوسط[٣].

كما انتشرت صناعة حلواء الخروب. ويصف ابن بطوطة طريقة صنعها : يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء، وكانت كميات من ذلك تصدر إلى مصر والشام[٤]. ويشير ابن الوردي إلى ازدهار صناعة الحصر البديعة في طبرية ومنها حصران الصلاة التي كانت الواحدة منها تشترى بخمسة جنيهات مغربية[٥]. وفي بيسان ينبت السامان الذي تصنع منه الحصر السامانية ولا يوجد نباته البتة الا فيها كما يقول الادريسي[٦].

وازدهرت في فلسطين صناعة السكر وبخاصة بعض مناطق الغور عند اريحا وغيرها حيث تكثر زراعة قصب السكر[٧] ، وكذلك في بعض الجهات الساحلية من مثل مدينة كابل التي التي كثرت فيها مزارع الاقصاب والتي كان يطبخ فيها السكر الفائق[٨]. وفي اريحا كان يزرع

---

(١) نفسه ، ص ١٨٠.

(٢) سفرنامة ، ص ١٩.

(٣) الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠٠–٢٠١ ، ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٦٠–٦١.

(٤) ابن بطوطة : نفس الصفحة.

(٥) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٧.

(٦) نزهة ، ص ٢.

(٧) ياقوت : معجم ٢٠٠/١ ، القزويني : آثار ، ص ٩٥.

(٨) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٦٢.

نبات الوسما أو النيلج على نطاق واسع لغرض استخراج صبغ النيل ذي اللون الازرق الغامق منه[١].

وقد ازدهرت – أيضاً – صناعة السفن البحرية في المدن الفلسطينية المطلة على البحر المتوسط، وهنالك نوع من السفن يدعى الجودي برعت حيفا في صناعته[٢].

ومن خلال قائمة موسعة يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين نستطيع ان نضع ايدينا على عدد آخر من الصناعات الفلسطينية، ومن ابرزها ٠ فضلا عن الصناعات الغذائية، الفوط والمرايا وقدور القناديل والابر والخرز والزجاج والكاغد والبز والسبح والمآزر[٣].

وافاد الفلسطينيون أيضاً من المعادن والمواد الخام المتوفرة في بلادهم، وقد سبق وان اشرنا إلى الفوائد الجمة التي كانوا يحصلون عليها من المادة القيرية التي يرمي بها البحر الميت، أو تستخرج من سواحله، والمسماة بالحمر، ويمكن ان نضيف هنا الكبريت الذي كان يستخرج من مقالع اريحا[٤] ، والفضة التي كانت تصنع في القدس وتصدر إلى مختلف البلاد[٥]، والملح إذن يتجمع على سواحل البحر الميت، وهو انواع شتى، الا ان احسنها ولا ريب الملح " الاندراني " الذي يكثر بالقرب من ارض سدوم، وهو اصفاها والطفها، وكيفما تكسرت حجارته ما تكسرت الا فصوصا مربعات الزوايا[٦]. والحجارة البيضاء التي كانت تستخرج من مقاطع خاصة[٧] ، والرخام الكثير الذي كان يستخرج من اطراف الرملة والذي كانت تزين به واجهات الكثير من القصور والبيوت بعد نقشه وتزيينه، ويحدثنا ناصر خسرو كيف ان هذا الرخام يقطع بمنشار لا اسنان له وكيف انهم كانوا يعملون المنشار على اعمدة من الرخام بالطول لا بالعرض، فيخرجون منه الواحا كالواح الخشب، وكيف انه راى هناك انواعا والوانا من الرخام، من الملمع والاخضر والاحمر والاسود والابيض، من كل لون[٨].

ولا نكاد نجد، فيما عدا هذه الاشارات، ثمة شيء يذكر عن الصناعات الفلسطينية، رغم انها كانت اكثر من هذا ولا ريب. وسنعرف بعد قليل سبب هذه الشحة في الحديث عن الكثير

---

(١) ابو الفدا : تقويم ، ص ٢٣٦.

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٨.

(٣) احسن التقاسيم ، ص ١٨٠.

(٤) القزويني : آثار ، ص ٩٥ ، المقدسي التقاسيم ، ص ١٨٤.

(٥) الظاهري : زبدة ، ص ٢٣.

(٦) الدمشقي نخبة ، ص ٧٩.

(٧) المقدسي : التقاسيم ، ص ١٨٤.

(٨) سفرنامة ، ص ١٩. المقدسي : نفس الصفحة.

من جوانب الحياة الفلسطينية في مصادرنا الجغرافية. وما يقال عن الصناعة يمكن ان يقال عن التجارة. فرغم ان فلسطين – كما راينا – كثيرة الزروع والثمار، ورغم ازدهار العديد من الصناعات الغذائية فيها، ورغم موقعها التجاري الممتاز على خطوط المواصلات المحلية والعالمية، برا وبحرا. فاننا لا نكاد نعثر سوى على اشارات مبعثرة عن النشاط التجاري الذي مارسته فلسطين : الحركة المزدحمة الدؤوبة في ميناء عكا، ثغر فلسطين الكبير[١] ، والاسواق الكثيرة العامرة في عدد من المدن المطلة على الساحل أو المنتشرة في الداخل كعزة وعسقلان[٢] وعجلون[٣] والخليل[٤] ورفح[٥] والرملة التي وصفت بانها عامرة وان فيها اسواقا وتجارات ودخلا وخرجا[٦] اما القدس فقد اشتهرت بكثرة اسواقها[٧] ، وجمال تنسيقها حيث كان لكل جماعة من الصناع سوق خاص[٨]. ويصف الظاهري جانبا من هذه الاسواق امتدت على شكل ثلاث قصبات على صف واحد ويقول بانه لم يكن بغالب البلاد نظيرها[٩] ، وقد انشئت فيها الخانات العديدة لتغطية حاجة التجار إلى الاقامة[١٠]. واشتهرت نابلس هي الاخرى بكثرة اسواقها وازدحامها، وكان احد هذه الاسواق يمتد من طرف المدينة إلى طرفها الاخر، بينما امتد سوق ثان إلى نصف البلد[١١].

وهناك اكثر من اشارة إلى ما كانت تصدره فلسطين إلى البلاد الاخرى من المواد الخام والمنتجات الزراعية والمصنوعات. وكانت المنتوجات الزراعية ابرز هذه الصادرات ولا ريب. فالى البلاد المجاورة كانت تصدر انواع مختلفة من الكروم والتفاح[١٢] ، ونجد في القائمة التي يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين الكثير من المواد الزراعية التي كانت تصدر إلى الخارج وابرزها :

---

(١) ابن جبير : رحلة ، ص ٢٥٨–٢٨٦ ، رحلة ، ص ٩٣.

(٢) ابن بطوطة : تحفة ، ص ٥٤ ، اسحق ابن الحسين : آكام المرجان ، ص ٢٢.

(٣) ابن بطوطة : تحفة ، ص ٦٠–٦١.

(٤) ياقوت : معجم ٤٦٨/٢.

(٥) نفسه ٧٩٦/٢ ، ابن عبد الحق : مراصد ٤٧٦/١.

(٦) الادريسي : نزهة ، ص ٢ ، ابن بطوطة : تحفة ، ص ٦٠–٦١.

(٧) ياقوت : معجم ٥٩٣/٤ ، ابن عبد الحق : مراصد ١٣١/٣.

(٨) خسرو : سفرنامة ، ص ١٩.

(٩) زبدة ، ص ٣٢.

(١٠) نفسه ، ص٣٢.

(١١) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٤.

(١٢) نفسه ، ص ١٧٢.

الزيت والخرنوب والجبن والقطن وانواع الزبيب والتفاح والتمور والنيل والحبوب والعسل والرز. ومن ابرز ما يصدر من المصنوعات : الصابون والمناشف والفوط، والمرايا وقدور المناديل والابر والمآزر والبز والسبح والكاغد[١]. كما يقدم قائمة اخرى بالمكاييل المعمول بها في فلسطين من مثل القفيز والويبة والمكوك والكليجة. فالكليجة تبلغ نحو صاع ونصف والمكوك ثلاث كيالج والويبة مكوكان والقفيز اربع ويبات وينفرد اهل القدس بالمدى وهو ثلثا القفيز وبالقب وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان. وهنالك أيضاً الرطل الذي يبلغ اثنا عشر أوقية، وتتراوح الاوقية بين الخمسين درهم إلى بضع واربعين، ويبلغ الدرهم ستون حبة والحبة شعيرة واحدة، والدانق عشر حبات والدينار اربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث شعيرات ونصف[٢].

ويصف ابن جبير عكا بانها محط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام، ومرفأ كل سفينة[٣] ويشبهها في عظمها بالقسطنطينية، ولا ريب انه يبالغ في ذلك كثيرا رغم ان عكا يومها (٥٨٠هـ) كانت قاعدة مدن الفرنج بالشام. وهي مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق، وسككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطيء الاقدام"[٤]. وهو يتحدث عن ايام مغادرته اياها فيمنحنا معلومات اكثر عن حركة التجارة منها واليها.

يقول : في التاسع من شهر اكتوبر كنا لا نزال على ظهر المركب بمرسى عكا منتظرين الاقلاع وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوما لعدم استقامة الريح. وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب وذلك لان الريح الشرقية لا تهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيها والتجار لا ينزلون إلى عكا بالبضائع الا في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل، فيها تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه، واكثر واقل بحسب ما يقضي به الله (سبحانه وتعالى). والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر وفيه تتحرك الريح الشرقية اقصر من المدة الربيعية، وانما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوما واكثر واقل، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربية اكثرها دواما، فالمسافرون إلى الغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق "[٥].

---

(١) نفسه ، ص ١٨٠.

(٢) نفسه ، ص ١٨١.

(٣) رحلة ، ص ٢٨٥.

(٤) نفسه ، ص٢٨٥-٢٨٦.

(٥) نفسه ، ص ٢٩٣-٢٩٤.

ويتحدث ناصر خسرو عن ميناء عكا فيقول بانه يقع على الطرف الجنوبي للمدينة، وان معظم مدن الساحل كذلك. وهو يعرف الميناء بانه اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن، وهي تشبه الاسطبل، وظهرها ناحية المدينة، وحائطاها داخلان في البحر وعلى امتدادها مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعا، وقد شدت السلاسل بين الحائطين، فاذا اريد ادخال سفينة إلى الميناء ارخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو ان يقصدها بسوء[١]. ويقول الادريسي بان مرساها مأمون وان ناسها اخلاط[٢] ، كما هو معروف بالنسبة لسائر الموانيء في العالم.

وفي حيفا، حيث تنشط صناعة نوع من السفن البحرية المسماة بالجودي، يمتد لسان واسع في البحر اقيم عليه مرسى جيد لارساء الاساطيل، وهي بمثابة فرضة (ميناء) لطبرية قاعدة الاردن[٣]. وتعتبر يافا ميناء الرملة على البحر المتوسط، وتبعد عن الرملة ستة اميال، ويقول المقدسي بان هذا الميناء كان يتميز بالجدة[٤] ، ولكنه كان يعد من الموانيء الكبيرة ذات الشهرة الواسعة والرخاء العميم والاسواق المزدحمة حيث يتواجد عدد كبير من وكلاء التجار لتسيير المعاملات التجارية المتجددة[٥]. وكان يقوم في غزة مرسى للسفن التجارية ساعد ولا ريب في ازدهار الحركة التجارية فيها[٦].

وقد افاد الفلسطينيون – كذلك – من البحر الميت لاعمالهم التجارية فكانت تجتازه السفن الصغار التي تحمل صنوف الغلال والفواكه إلى اريحا وسائر اعمال الغور[٧].

(٤)

وبنظرة سريعة على حشود النصوص الملئى بالتفاصيل عن المواقع والاثار الدينية في فلسطين، والتي لا يكاد مصدر جغرافي يخلو من الحديث عنها وتركيز اهتمامه عليها. بنظرة سريعة يمكن ان يتبين السبب الرئيسي في شحة الحديث عن العديد من الجوانب المهمة في الحياة الفلسطينية وفي انعدامه تماما عن جوانب اخرى لا تقل عنها اهمية، وربما يكون لجغرافيينا

---

(١) سفرنامة ، ص ١٥.

(٢) نزهة المشتاق ، ص ٦.

(٣) خسرو : سفرنامة ، ص ١٨ الادريسي : نفسه ، ص ٦.

(٤) احسن التقاسيم ، ص ١٧٤.

(٥) ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٣٩.

(٦) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢.

(٧) نفسه ، ص ١.

الكثير من الحق في موقفهم هذا، ذلك ان عنصر الجذب في الجغرافيا الفلسطينية كان، ولا يزال، وسيظل مركزها الديني العريق، ومعطياتها العمرانية، والاثارية ذات الجذور التاريخية المتوغلة في عمر الزمن. والجغرافي المسلم على وجه الخصوص يجد في انفتاح دينه على سائر الاديان السماوية السابقة ومعطياتها، كما يجد في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام من التقدير والتكريم لهذه البقعة المباركة ما يدفعه دفعا إلى وصف كل ما تفع عليه عينه من تراث فلسطين الديني، والى الحديث بتلهف وعشق عن كل ما تلمسه يداه أو تطأه قدماه. انه يدخل محرابا دينيا كبيرا توالت على ارضيته نبوات السماء الكبرى، ووقف في ساحته انبياء الله جميعا عليهم السلام يصلون يوم الاسراء، وراء خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم. ان الجغرافي أو الرحالة المسلم وهو يشد الرحال إلى فلسطين لا يكاد يرى فيها الا ماقد جاء لكي يراه فعلا : المواقع والرؤى والمشاهد. والذكريات العزيزة التي طال شوقه اليها. وها هو الان في قلب التجربة. فلا نتوقع منه ان يشيح بصره عن مراكز الشد الروحي، فاذا ما اشاح قليلا ها هنا أو هناك فلا نفترضن فيه طول المكوث لكي يحكي لنا عن اشجار تزرع أو حبوب تحصد أو مركب يذهب وآخر يجيء، ولا نتوقعن فيه ان يحدثنا كيف يعيش الناس في فلسطين وماذا يفعلون. ففي الاماكن الاخرى من العالم الذي اتيح له ان يمر بها منحنا الكثير عن هذه الجوانب. ولكنه هنا في فلسطين. فان جل اهتمامه سينصب على بؤرة واحدة : تراث الاديان العريق، ومن ثم فانه مستعد ان يمنحنا ليس فقط الملامح الكلية والقسمات العامة لمعطيات هذا التراث، بل ان يتجاوزها صوب الدقائق والتفاصيل فيحدثنا حتى عن انحناءات الاحرف، وتناظر الزوايا، والوان الصخور.

قد يتأذى الباحث الذي يريد ان يأخذ من الجغرافي القديم كل شيء عن فلسطين من اجل ان يحظى بصورة اكثر وضوحا. ولكن الجغرافي – نفسه – سيكون اكثر اذى لو انه جمد لحظة الشوق وطامن من عنفوان التجربة، وهو في المكان المبارك الذي قد لا تتاح له رؤيته مرة اخرى. فلنعطهم الحق هذه المرة. ولنر – معا – من خلال اعينهم. هذه المرة كذلك.

ولكي لا يطول بنا السرى ونضيع في الدقائق والتفاصيل، مما لا يسمح به مجال كهذا، فسنكتفي بعرض لمسات مما قيل في هذا الميدان الرحب، وهو كثير كثيف يمكن لغرض الاستقصاء احالة القراء والباحثين عليه كما سيجدون في الصفحات التالية.

القدس هي الهدف الاول !! انها في القلب من فلسطين تتربع على مكان عال، فكأنها – بذلك – تنادي الرحالة والزائرين، وتفتح لهم صدرها. " مدينة مرتفعة على جبال يصعد اليها من كل مكان قصد من فلسطين "[1]. واليكم شهادة واحد من الرحالة المشاهير. ابن بطوطة. " وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل،

([1]) الاصطخري : مسالك ، ص ٥٦.

ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرجه الى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت "[1] وقد كان للمدينة على عهد المقدسي ثمانية ابواب[2]. وما يلبث ابن بطوطة ان يميم وجهه قبل المسجد الاقصى، فاذا كانت القدس هي قلب فلسطين فان المسجد الاقصى هو السويداء " وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن. يقال انه ليس على وجه الارض مسجد اكبر منه، وان طوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعا. وله ابواب كثيرة في جهاته الثلاث، واما الجهة القبلية منه فلا اعلم بها الا بابا واحدا وهو الذي يدخل منه الامام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف ، في النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة، مموه بالذهب والاصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع، سواه، مسقفة "[3].

ويجري ابن الوردي مقارنة بينه وبين جامع قرطبة الشهير. فيصف اولهما بانه المسجد المعظم المسمى بالاقصى ثم يقول : " وليس في الدنيا كلها مسجد على قدره الا جامع قرطبة من بلاد الاندلس. وطول المسجد الاقصى مائتا باع في عرض مائة وثمانين. وفي وسطه قبة عظيمة تسمى قبة الصخرة، ويقال ان سقف جامع قرطبة اكبر من سقف جامع الاقصى، وصحن الاقصى اكبر من صحن جامع قرطبة "[4].

وثمة شقيقة المسجد : قبة الصخرة. " وهي من اعجب المباني واتقنها واغربها شكلا، قد توفر حظها من المحاسن واخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام، ولها اربعة ابواب، والدائر بها مفروش بالرخام ، أيضاً، محكم الصنعة وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنها من انواع الزواقة (الزينة) ورائق الصنعة ما يعجب الواصف، واكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الاثار، فان النبي (عليه السلام) عرج منها إلى السماء وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضاً ينزل اليها على درج، وهنالك

---

(1) تحفة النظار ، ص ٥٧.

(2) احسن التقاسيم ، ص ١٦٥.

(3) تحفة النظار ، ص ٥٨ ، وعن المعطيات الغزيرة للجغرافيين العرب الخاصة بالمسجد الاقصى انظر بالتفصيل الصفحات ٢٤٢-٣٠١ من كتاب : الأب ا . س . مرمرجي الدومنكي : بلدانية فلسطين العربية (بيروت-١٩٤٨) وهو المرجع الذي اعتمدناه في هذا البحث بالنسبة لعدد من المصادر غير المتوفرة وهي رحلة ناصر خسرو ، ومعجم البلدان لياقوت ، ونزهة المشتاق للادريسي واحسن التقاسيم للمقدسي وآثار البلاد للقزويني ومخطوطتا الاشارات للهروي والرحلة القدسية للنابلسي.

(4) خريدة ، ص ٢٣-٢٤.

شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما الغلق يغلقان عليها، احدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة ورقة كبيرة من حديد معلقة هناك، والناس يزعمون انها ورقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه "[1] وحسنا فعل ابن بطوطة بقوله يزعمون، رغم انه في اماكن اخرى من العالم الواسع الذي تجول فيه، عرض لظواهر واشياء مما لا يصدقه العقل ولا يقبل التأويل. دون ان يدرأ عن نفسه الشبهة – احيانا – بقوله (يزعمون).

وغير المسجد الاقصى وقبة الصخرة، مواقع ومشاهد وذكريات : هنالك بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم، شرقي البلد، على تل مرتفع، بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء وقبر رابعة العدوية وهي غير العدوية الشهيرة، وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها، واخرى معظمة يحج اليها النصارى ويزعمون ان فيها قبر المسيح عليه السلام[2]. وهناك محراب داود عليه السلام، وهي بنية مرتفعة، يشبه ان يكون ارتفاعها خمسين ذراعا من حجارة وعرضها نحو ثلاثين ذراعا على الحرز والتخمين، واعلاه بناء مثل الحجرة وهو المحراب، واذا ما وصلت اليها من الرملة فهو اول ما يتلقاك من بناء بيت المقدس[3].

هنالك أيضاً الكنيسة العظمى المسماة بكنيسة القيامة والتي تحج لها الروم من سائر الاقطار، يقول عنها ياقوت بانها اعظم كنيسة للنصارى بالقدس وان وصفها لا ينضبط حسنا وكثرة مال وتنميق عمارة، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم ان المسيح (عليه السلام) قامت قيامته فيها، وبروح نقدية يكشف ياقوت عن احدى مزاعمهم – يومها – حول قنديل كانوا يزعمون ان النور ينزل من السماء في يوم معلوم، فيشعله، ويتبين في نهاية الرواية ان احد القسس كان مكلفا بتقريب شمعة منه، فتعلق به بغتة، والناس لا يرون ولا يشعرون به، فيشتعل على حين غفلة " فيعظم عندهم ويطيعونه"[4]. وهذا يذكرنا بما فعله ناصر خسرو مع روايه الناس حول وادي جهنم الذي يقع قريبا من القدس، من ان الذي يذهب إلى نهايته يسمع صياح اهل جهنم، فان الصدى يرتفع هناك !! يقول الرجل : " وقد ذهبت فلم اسمع شيئاً " .

---

(1) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٥٨.

(2) نفسه ، ص ٥٩.

(3) الاصطخري : مسالك ، ص ٥٦–٥٧ ، ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٥٨.

(4) معجم البلدان ١٧٣/٤.

ويقابل القيامة من المشرق كنيسة الحبس الذي حبس فيه المسيح (عليه السلام) وبها مقابر الفرنج، وعلى الميامن من جبل الزيتون تقع القرية التي جلب منها حمار المسيح (عليه السلام) والى الجنوب من بيت المقدس تقوم كنيسة صهيون التي يقال ان المسيح (عليه السلام) اكل فيها مع حواريه من المائدة التي انزلت عليه من السماء، وهي كنيسة حصينة، وهنالك على طرف الخندق تقع كنيسة بطروس، وفي هذا الخندق تتفجر عين سلوان التي ابرأ فيها المسيح عليه السلام الرجل الاعمى، وحيث تنتشر بيوت كثيرة منقورة في الصخر فان رجال مقيمون قد حبسوا انفسهم لله تعالى. وفضلا عن هذا كله فان القدس تضم جناحيها على قبور عدد كبير من الانبياء (عليهم السلام) وآثارهم.

وفي بيت لحم تقوم كنيسة حسنة البناء متقنة الصنع، في الموضع الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) ، والذي يبعد عن القدس ستة اميال، وفي وسط الطريق اليه يقبع قبر راحيل ام يوسف (عليه السلام) ، وقد زار ابن بطوطة بيت لحم وقال ان فيه اثر جذع النخلة التي اسقطت على مريم (عليها السلام) رطبا جنيا، وان عليه عمارة كثيرة، وان النصارى يعظمونه اشد التعظيم ويضيفون من نزل به. كما انه زار الخليل (التي كانت تسمى حبرون)، ووصفها بانها مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار، حسنة المنظر عجيبة المخبر، في بطن واد، وان مسجدها انيق الصنعة محكم العمل، بديع الحسن سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت، ورأى صخرة يبلغ احد اقطارها سبعة وثلاثون شبرا وفي داخل المسجد الغار المقدس حيث تقع قبور ابراهيم واسحق ويعقوب (عليهم السلام).

تقابلها قبور ازواجهم الثلاث، وعن يمين المنبر ملصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق يفضي بها إلى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها، وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الان مسدود، وقد نزلت بهذا الموضع مرات. ومما ذكره اهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه (المسفر للقلوب عن صحة قبور ابراهيم واسحق ويعقوب)، وجل اهل العلم يؤكدون ذلك ولا يطعن فيه الا اهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه.

ويواصل ابن بطوطة وصفه لمسجد الخليل فيقول انه به أيضاً قبر يوسف عليه السلام، وبشرقي الحرم تربة لوط (عليه السلام) وهي على تل مرتفع، وعلى قبره ابنية حسنة، وهو في بيت منها حسن البناء، مبيض، ولا ستور عليه، وعلى مقربة من المكان يقع مسجد اليقين وهو على تل مرتفع، له نور واشراق ليس لسواه، ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيّمه. وفي المسجد قريبا من بابه، موضع منخفض في حجر صلد قد هيء فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا

واحدا. وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي (رضي الله عنهم) وباعلى القبر واسفله لوحان من الرخام[١]. ويصف الدمشقي مقام الخليل عليه السلام بان طوله ثمانون ذراعا وعرضه خمسون وفي الطول منه عشرون حجرا مدماكا واحدا[٢].

وفي نابلس حيث يقيم عدد من اليهود السامريين[٣] ، يحجون إلى جبلي طور زيتا المجاورين ويحرقون عليهما قرابينهم من الخرفان[٤] ، تقع البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام حيث جلس يطلب من المراة ماء للشرب، والى جواره تقع كنيسة معهودة[٥]. وتقع بالقرب من نابلس مدينة سبسطية التي تضم قبر زكريا وابنه يحيى، فضلا عن قبور جماعة من الانبياء والصديقين (عليهم السلام)[٦] ، كما تقع بليدة، تدعى عورتا يقال ان فيها قبور سبعين نبي[٧]. وعلى الطريق إلى بيسان قرية تدعى قرية لاوى نسبة إلى لاوى بن يعقوب[٨].

انه ما من مدينة أو قرية في فلسطين الا وفيها (الشاهد) على الدور المكثف المترع بالعطاء، والذي لعبته فلسطين في حركة الاديان السماوية المتتابعة.

في الرملة يقوم الجامع الابيض الذي يذهب ابن بطوطة مع احدى مبالغاته إلى القول بان في قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين[٩] ويقول عنه المقدسي بانه ابهى وارشق من جامع دمشق، وانه ليس في الاسلام اكبر من محرابه، ولا يعد منبر بيت المقدس احسن من منبره، وان

---

(١) تحف النظار ، ص٥٥-٥٦ وانظر : ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٤.

(٢) نخبة الدهر ، ص ٣٩. ولمزيد عن التفاصيل انظر : المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٢ ، ياقوت : معجم ١٩٤/٢ ، ٤٦٨ ، ابو الفدا : تقويم ، ص ٢٤١ ، الادريسي: نزهة ، ص ٦ ، الهروي ، الاشارات ، ص ٤٢ ، الظاهري : زبدة ، ص ٤٢.

(٣) انظر : الاصطخري : مسالك ، ص ٥٧-٥٨ ، وابن حوقل : صورة الارض : ص ١٥٨-١٥٩ والدمشقي: نخبة ، ص ٢٠٠-٢٠١ ، وابن الوردي ، خريدة ، ص ٢٤.

(٤) الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠٠-٢٠١ وانظر ياقوت : معجم ٥٥٧/٣-٥٥٨ وابن الفقيه : البلدان ، ص ١٠١ وابن عبد الحق : مراصد ١٠/٢ ، العمري : مسالك ، ص ٢٢٠.

(٥) ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٤.

(٦) ياقوت : معجم ٣٣/٣ ابن عبد الحق : مراصد ١٠/٢ ، العمري : مسالك ، ص ٢٢٠.

(٧) ياقوت : معجم ٧٤٥/٣ ، ابن عبد الحق ، مراصد ٢٨١/٢.

(٨) ياقوت : معجم ٣٤٤/٤ ، ابن عبد الحق : مراصد ٣/٣ ، ولمزيد من التفاصيل عن مكانة نابلس الدينية انظر : الاصطخري : مسالك ، ص ٥٨ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٦٤ ، الهروي : الاشارات ، ص ٣٤ ، الادريسي : نزهة ، ص ٢ ، القزويني : آثار ١٨٤.

(٩) تحفة النظار ، ص ٦٠.

ليس له منارة بهية[١]. ويروي الظاهري ان بمغارة الجامع اربعين قبرا من قبور الصحابة، وقبرين لاثنين من اخوة يوسف وقبري ابي هريرة وسلمان الفارسي رضي الله عنهما[٢].

وفي الناصرة من اعمال صفد، حيث ظهر المسيح عليه السلام، الموضع الذي تلقت امه البشارة به، وهو معروف يزوره النصارى وغيرهم[٣] وقد سمي النصارى باسمهم هذا نسبة اليها، والى قريب منها يقع جبل ساعير، ويرى اهل القدس ان المسيح عليه السلام انما ولد في بيت لحم وان آثار ذلك عندهم ظاهرة وانما انتقلت به امه إلى هذه القرية[٤].

وفي منحدر جبل الكرم المطلّ على حيفا، يقع الكهف الذي اوى اليه الياس عليه السلام، وبظاهر المدينة دير للنصارى يدعى دير القديس الياس، وعلى قمة الجبل تقع اطلال المذبح الذي عمره هذا النبي في القرن العاشر قبل الميلاد، وهو بناء مستدير يبلغ محيط قاعدته اربعة اذرع[٥].

وقريبا من الكرمل، على شاطيء بحر الجليل، تقع قرية معون التي كانت مقام المسيح عليه السلام بعد مفارقته الناصرة[٦] ، وفي عكا القريبة يقع قبر صالح عليه السلام[٧] والى قريب قريب من طبرية يقع الجب الذي اسقط فيه يوسف عليه السلام فالتقطه بعض السيارة وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية، والجب عميق كبير ينبع منه الماء[٨]. كما يقوم إلى جوارها مسجد يعرف بمسجد الانبياء يضم قبور شعيب وبنته وسليمان ويهوذا عليهم السلام وغيرهم[٩] والى قريب من طبرية – كذلك – تقع قرية تدع كرسي يقال ان المسيح عليه السلام جمع الحواريين بها وانفذهم منها إلى النواحي، وفيها موضع كرسي زعموا انه جلس عليه[١٠].

---

(١) احسن التقاسيم ، ص ١٦٤.

(٢) زبدة ، ص ٤٢.

(٣) الدمشقي : نخبة ، ص ٢١٢.

(٤) ياقوت : معجم ٧٢٩/٤ ، القزويني : آثار ، ص ١٨٤ ، الهروي : الاشارات ، ص ٣٠.

(٥) التطيلي : رحلة ، ص ٩٣–٩٤.

(٦) نفسه ، ص ٩٤ ، وانظر الهامش رقم –٣– من الصفحة نفسها.

(٧) ابن بطوطة : تحفة ، ص ٦١.

(٨) نفسه ، ص ٦٢ ، اسحق بن الحسين : آكام المرجان ، ص ٢٢.

(٩) ابن بطوطة ، ص٦٢ ، ابن جبير : رحلة ، ص ٢٩٢ ، الاصطخري : مسالك ، ص ٥٨–٥٩ ابن حوقل : : صورة الارض ، ص ١٦٠.

(١٠) ياقوت : معجم ٢٦٠/٤ ، ابن عبد الحق : مراصد ٤٨٩/٢.

وفي الغور يمر ابن بطوطة لدى مغادرته فلسطين بقير ابي عبيدة بن الجراح رضي اللهه عنه فيزوره ويجد عليه زاوية يقدم فيها الطعام لابناء السبيل، ويبيت هناك، واصحابه ليلة، ثم يغادرون المكان إلى القصير حيث قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهنالك قريبا من اريحا، اسفل الغور ،يقع قبر موسى عليه السلام في مكان يدعى شيحان[١].

فاذا يممنا وجوهنا قبل الساحل فاننا سنلتقي بما سمي جبل مشاهد الانبياء الذي يقع على طريق الذاهبين إلى عكا، ويحدثنا ناصرخسرو كيف انه عزم على زيارة هذه المشاهد وكيف انه تعرف على رجل من العجم قدم من اذربيجان للتبرك بهذه المشاهد للمرة الثانية فرافقه إلى عدد منها، قبور ذي الكفل وهود والعزير واربعة من ابناء يعقوب اخوة يوسف والغار الذي يقع عليه قبر ام موسى[٢].

وفي شرقي عكا تتفجر العين المعروفة بعين البقر، وقد بني عليها مسجد ويزورها المسلمون واهل الكتاب[٣]. وقريبا من عكة – على الطريق إلى طبرية – تقع قرية تدعى كفر مندة تحتوي على قبر زوجة موسى المسماة صفوراء وبها – كذلك – الجب الذي سقى منه موسى (عليه السلام) للفتاتين، ويقول ياقوت ان الصخرة التي كانت تغطي الجب باقية إلى الآن[٤].

وفي عسقلان وغزة وعلى الساحل الجنوبي لفلسطين نلتقي بمواقع اخرى، في الاولى، حيث كان ابراهيم الخليل (عليه السلام) قد مر يوما، يقع مشهد شهير لرأس الحسين (رضي الله عنه) قبل نقله إلى القاهرة، على ما يروي ابن بطوطة، وهو مسجد عظيم كثير الارتفاع، وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر (رضي الله عنه) لم يبق منه الا حيطانه، وفيه اساطين رخام لا مثيل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد. وبظاهر عسقلان يقع وادي النمل، الذي يقال انه المذكور في الكتاب العزيز. وبمقبرة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصى لكثرته[٥].

---

(١) العمري : مسالك ، ص ١٧٦.

(٢) سفرنامة ، ص ١٦.

(٣) القزويني : آثار ، ص ١٤٩ ، ياقوت معجم ٧٥٨/٣ ، ابن عبد الحق : مراصد ٢٩٤/٢.

(٤) معجم ٢٩١/٤ ، ابن عبد الحق : مراصد ٥٠٤/٢ ، الهروي : الاشارات ، ص ٢٩ ، القزويني : آثار ، ص ١٦٥.

(٥) ابن بطوطة : تحفة ، ص ٥٩–٦٠ ، اسحق بن الحسين : آكام المرجان ، ص ٢٢.

أما في غزة، احد المواقع الاخيرة على الطريق إلى مصر، فاننا نلتقي بعدد من المساجد ابرزها – ولا ريب – المسجد الجامع الذي تقام به الجمعة وهو انيق البناء، محكم الصنعة، وقد بني منبره من الرخام الابيض[١].

وباختصار، فان في فلسطين على صغر رقعتها، ما يقرب من عشرين مسجد جامع، كما يقول الاصطخري[٢] ، ولهذا دلاته ولا ريب.

(٥)

على المستوى البلداني، فانه ما من مدينة مهمة في فلسطين الا وقدمها لنا الرحالة والجغرافيون. احيانا ملامحها الشاملة وقسمات شخصيتها المتميزة. واحيانا اخرى عبر واجهتها البارزة : دينية أو معمارية أو طبيعية أو اقتصادية أو اجتماعية. وفي احيان كثيرة قدموا لنا عنها لقطات متفرقة من هنا وهناك، وكانت اقلامهم وهي ترسم الصور اشبه بالكاميرا سريعة التحول في تنفيذ اللقطات والتي ازداد اعتمادها – فنيا – في العقد الاخير.

وبالاحالة إلى التقسيم الاداري لفلسطين الحديثة والذي سبق عرضه، يتبين لنا كيف حقق ادبنا الجغرافي العربي قدرا طيبا من التغطية، رغم انه ترك فجوات وفجوات، فحدثنا عن القدس والرملة واللد وبيت لحم والخليل وحطين واريحا ونابلس وعجلون وبيسان وصفد والناصرة وطبرية وعكا وحيفا ويافا وقيسارية وارسوف وايلة وعسقلان وغزة ورفح. وغيرها. كما انه قدم كشوفا زمانية ومكانية للمسافات بين المدن، منها – على سبيل المثال – ما ذكره الاصطخري من ان المسافة بين دمشق وطبرية، في الشمال الشرقي لفلسطين، اربعة ايام، ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة ايام، ومن الرملة إلى رفح في اقصى الجنوب الغربي يومان. اما عرض فلسطين فيبدأ من البحر عند يافا ويمر بالرملة والقدس فاريحا فساحل البحر الميت ويستغرق يومين[٣] واذا واصلنا المسير في الطريق الاخير وانحرفنا بموازاة جبال الشراة باتجاه معان فان الطريق سيبلغ ست مراحل[٤] ، ويستعرض قدامة بن جعفر في كتابه عن (الخراج) "السكك التي رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسما للبريد : من طبرية قصبة الاردن إلى اللجون من عمل الاردن اربع

---

(١) ابن بطوطة ، ص ٥٤.

(٢) مسالك ، ص ٥٨.

(٣) نفسه ، ص ٦٥–٦٧ ، ابن حوقل صورة الارض ، ص ١٥٧–١٥٨.

(٤) الاصطخري : مسالك ، ص ٦٥–٦٧ وانظر عن المسافات كذلك : ابن جبير : رحلة ، ص ٢٩٢ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢١٩ ، الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠١.

سكك، ومن اللجون إلى الرملة قصبة فلسطين تسع سكك، ومن الرملة إلى آخر عمل فلسطين وهي سكة (المعينة) تسع سكك "[١].

وقد صنف الجغرافيون فلسطين ضمن الاقليم الثالث من بين سبع اقاليم في العالم[٢] ، وهي تقع في اطار قسم جغرافي واحد معروف يدعى الشام كان الروم قد قسموه إلى اربعة اقسام: قسم قصبته دمشق وآخر هو الاردن قصبته طبرية، وثالث قصبته حمص، اما القسم الرابع وهو فلسطين فكانت قصبته ايليا أو بيت المقدس، وبعد الفتح الاسلامي سميت هذه الاقسام اجنادا[٣] حيث قسم الشام إلى خمسة اجناد وفق الضرورات العسكرية وذلك باضافة جند قنسرين وكان كل جند منها يضم عددا من الكور[٤] ، وقد قسمت فلسطين إلى مناطق ادارية سميت اعمالا وهي : عمل القدس وعمل الخليل وعمل نابلس وعمل الرملة وعمل غزة[٥] ، وكانت فلسطين تضم في عهد ابن خرداذبة (منتصف القرن العشرين الهجري) الكور التالية، الرملة، بيت المقدس، عمواس، اللد، يافا، قيسارية، نابلس، سبسطية، عسقلان، غزة، بيت جبريل[٦] ، واستمر هذا التقسيم إلى عهد الادريسي (منتصف القرن السادس الهجري)[٧].

ولم تكن القدس قاعدة لفلسطين باستمرار، ولا اكبر مدينة فيها، فقد نافستها لقرون عديدة، مدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك والتي اتخذت قاعدة لفلسطين واخذت تنمو باستمرار حتى فاقت في اتساعها، بمرور الوقت، شقيقتها القدس[٨]. ولكن توالي الزلازل عليها اضطر العديد من اهلها لمغادرتها إلى القدس[٩] وكانت صفد وغزة في القرن السادس الهجري اكبر مدينتين في فلسطين[١٠].

---

(١) الخراج ، ص ٢٢٨.

(٢) الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠.

(٣) نفسه ، ص ١٩٢ ، وانظر ابن الوردي : خريدة ، ص ٢٣.

(٤) ياقوت : معجم ١٣٦/١ ، ابن عبد الحق : مراصد ٢٧/١ ، الظاهري : زبدة ٤٢ ، الادريسي : نزهة ، ص ١٢.

(٥) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ص ٤٣٠.

(٦) المسالك ، ص ٧٨.

(٧) نزهة ، ص ١٢.

(٨) انظر قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ٢٤٧.

(٩) الدمشقي : نخبة ، ص ٢٠١.

(١٠) نفسه ٢١٤.

وليس بعد الحديث عن جغرافية فلسطين الطبيعية، واقتصادها، وآثارها الدينية، من من مادة ذات شأن لتكوين صورة واضحة عن الجوانب الاخرى وبخاصة الحياة الاجتماعية والنشاط الثقافي والنظم الادارية، وقد نجد الشيء الكثير عن هذه الجوانب جميعا في مصادر عربية اخرى غير المؤلفات الجغرافية، تلك هي كتب (الخطط) أو ما نسميه في العصر الحاضر بالنظم، والتي تقدم تفاصيل غزيرة عن الجوانب آنفة الذكر وبخاصة الادارة والمجتمع، وهناك أيضاً مصادر التاريخ المحلي والتاريخ العام وان كانت الاخيرة تصب اهتمامها الرئيسي على مجريات الاحداث السياسية والعسكرية لكنها لا تخلو احيانا من اشارة لهذا الجانب الحضاري أو ذاك. ولا ننسى – كذلك – ما يمكن ان تقدمه المدونات الادبية على اختلاف انماطها من مادة قيّمة عن هذه الجوانب. وإذ كان هذا البحث ينصب على معطيات الادب الجغرافي العربي عن فلسطين وليس عن التاريخ الحضاري لفلسطين، فانه ليس من ضرورة منهجية تدفع للرجوع إلى هذه الانماط من المصادر.

ثمة اشارات متفرقة إلى بعض جوانب الحياة الاجتماعية، منها تلك التي تتحدث عن بعض تقاليد (الاوقاف) واسهامها في تقديم نوع من (الضمان الاجتماعي) لبعض الفئات من الفقراء أو الغرباء أو الزائرين، في المأوى والمطعم والعلاج، وهي تقاليد كانت سائدة في معظم انحاء العالم الاسلامي لمدى قرون طويلة، وقد بلغت في المرحلة الممتدة بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين حدا كبيرا من الاتساع والنضج. ومن خلال تتبع هذه التقاليد، أو الخدمات، يمكن ان نعثر على بعض نماذج الحياة الاجتماعية يومذاك.

في الخليل زار ناصر خسرو مشهدا لعدد من الانبياء، اقيمت فوقه مقصورة ضمت عدداً من الحجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها اوقاف كثيرة من القرى ومستغلات القدس وهم يقدمون للضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون. وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق. وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم. ويزن رغيفهم منا واحدا، ويعطى من يصل هناك رغيفا مستديرا وطبقا من العدس المطبوخ بالزيت وزبيبا كل يوم. وفي بعض الاحيان كان يبلغ عدد المسافرين خمسمائة، فتهيأ الضيافة لهم جميعا[1].

ويتحدث العمري عن زيارته للحرم الابراهيمي في الخليل عام (٧٤٥هـ) وكيف اخبره بعض المباشرين انهم في بعض ليالي العشر الاواخر من رمضان تلك السنة فرقوا ما يزيد على الثلاثة عشر الف رغيف، وانهم في غالب ايام العام يفرقون ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف، ويقدمون مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيب والسماق. وفي بكرة النهار يطبخ أيضاً مع قدر من الدشيش ويفرق على الواردين. وفي بعض ايام الاسبوع يطبخ ما هو افخر من ذلك، وللحرم

([1]) سفرنامة ، ص ٣٢.

خدام يقومون بغربلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه، لا يتوقفون ليلا ولا نهارا. وقد رتبت اهراء القمح والطاحون والفرن بحيث ينفذ بعضها إلى بعض. يفرغ القمح في الاهراء فيخرج خبزا مخبوزا !! ولا يزال على ذلك مدى الشهور والاعوام، لا ينقطع له مدد ولا يحصر بضبط ولا عدد[١].

ويشير ناصر خسرو إلى المستشفى الكبير في القدس والى الاوقاف الطائلة التي وقفت عليه، وكيف يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وكان يعمل في المستشفى عدد من الاطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف، ويقع هذا المستشفى على حافة وادي جهنم[٢].

ويمنحنا المقدسي تفاصيل اخرى عن الحياة الفلسطينية وتقاليدها، توقد قناديل المساجد على الدوام، وتعلق بالسلاسل اسوة بما كان سائدا في مكة. وفي كل جامع يعلق صندوق على احد الاعمدة لجمع الاموال، ولاصحاب بني حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر يقرأون خلاله دفاتر في ايديهم. وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين، وللقراء مجالس في الجوامع. ومن اراد ان يختم القرآن أو يحيي ليلة النصف من شعبان فعليه بالمسجد الاقصى من بين سائر مساجد العالم الاسلامي.

والفلسطينيون يتجملون في ملابسهم، يلبسون الاردية الكثيرة، علماء وجهالا، ولا يتخفّفون في الصيف، انما هي نعال الطاق، ولا يقورون الطيالسة. ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة، وبعضهم، في قرى القدس ونابلس، يلبسون كساءً واحدا بلا سراويل. وقد اعتاد اغنياء الرملة ركوب الحمر المصرية بسروج، اما الخيول فلا يركبها الا امير أو رئيس.

وتكثر الافران في مدن فلسطين، اما في القرى فثمة ما يسمونه الطوابين، تنور في الارض صغير يفرش بالحصى ويوقد الزبل فوقه وحوله، فاذا احمر طرحت الارغفة على الحصى. وهم يكثرون طبخ العدس، ويقلون الفول بالزيت أو يسلقونه ويباع مع الزيتون، ويملحون الترمس ويكثرون من اكله، ويصنعون مع الخرنوب ناطفا يسمى القبيط، ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفا، وفي الشتاء يكثرون من صناعة الزلابية غير المشبكة من العجين.

واكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين على عهد المقدسي (النصف الثاني من القر الرابع الهجري) من اليهود، واكثر الاطباء والكتبة من النصارى، ولهؤلاء اعياد يعرفها المسلمون ويقدمون بها الفصول، الفصح وقت النيروز، والعنصرة وقت الحر، والميلاد وقت البرد، وعيد بربارة وقت الامطار، وعيد الصليب وقت قطاف العنب ، وعيد لوقت الزرع، وهم يعتمدون الشهور الرومية المعروفة : كانون الثاني، شباط، آذار. إلى آخره[٣].

---

(١) مسالك ١٦٨/١.

(٢) سفرنامة ، ص ٢١.

(٣) احسن التقاسيم ، ص ١٨٢.

ويأتي لزيارة القدس عبر هذه الاعياد وغيرها، من بلاد الروم الكثير من النصارى واليهود لزيارة كنائسهم هناك[١].

وقد بلغ عدد سكان القدس على ايام ناصر خسرو (منتصف القرن الخامس الهجري) عشرون الف رجل، وقد تميزت المدينة – يومها – باتساع وارتفاع ابنيتها، وبأسواقها الجميلة المنسقة، وبكثرة صناعها، وقد بلطت كافة اراضيها بالحجارة، وسويت الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلت مسطحة، بحيث تغسل الارض كلها وتنظف حين تنزل الامطار[٢].

وتتمركز طائفة اليهود السامرة في نابلس، وتحج إلى جبل طور زيتا المطل عليها، وهم يزعمون ان ابراهيم (عليه السلام) امر بذبح اسماعيل فيه، وعندهم في التوراة ان الذبيح اسحق، ويزعم اهل بيت المقدس انه لا يوجد سامري في غير نابلس، وكان للسامرة في نابلس مسجد كبير زعموا انه القدس، وان بيت المقدس المعروف ملعون عندهم حتى إذا اجتاز عليه احدهم اخذ حجرا فرجمه. ويتهمهم سائر اليهود بانهم مبتدعة أو كفار[٣]. ولهذه الطائفة توراة تخصهم غير تلك التي بيد بقية اليهود او النصارى، وهم ينفردون عن اليهود الآخرين بانكار نبوة من بعد موسى عليه السلام ما عدا هارون، ويخالفونهم في استبدال بيت المقدس، اذ يستقبلون طور نابلس زاعمين انه هو الذي كلم الله موسى (عليه السلام)، ويقرون ان الله تعالى هو الذي انقذ بني اسرائيل من فرعون ونجاهم من الغرق، ويقولون انه نصب طور نابلس للمتعبد[٤].

وسكان فلسطين اهل سنة وجماعة، يدين معظمهم بالمذهب الشافعي، وفيما عدا بعض القضاة من الاحناف فاننا لا نكاد نعثر الا على قلة منهم في المدن والقرى، كما لا نكاد نعثر على مالكي ولا داودي. ويكثر الاشعريون في طبرية كما يتواجد الشيعة فيها وفي عدد من احياء نابلس، ويتمركز النصيرية في السامرة، اما المجوس والصابئة فلا وجود لهم[٥].

ثمة ملاحظة اخيرة قد يحسن ان يختم بها هذا العرض الموجز وهي ان التعامل مع معطيات الادب الجغرافي العربي يقود إلى حقيقة مهمة وهي تضاؤل الحضور اليهودي في

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٩.

(٢) نفسه.

(٣) ياقوت : معجم ٥٥٧/٣ ، لابن عبد الحق : مراصد ٢١٤/٢ ، الاصطخري : مسالك ، ص ٥٨ ، الادريسي : نزهة ، ص ٢ ، الهروي : الاشارات ، ص ٣٤ : القزويني : آثار ، ص ١٨٤ ، ابو الفداء : تقويم ، ص ٢١٤.

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ٢٢٨/١٣.

(٥) نفسه ١٥٠/٤ المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٩ ، اليعقوبي : بلدان ، ص ٣٢٧ ، ناصر خسرو: سفرنامة ، ص ١٧.

فلسطين عبر العصور الاسلامية، ففيما عدا الاشارات الغزيرة عن الاثار الدينية اليهودية جنبا إلى جنب مع اثار الاديان السماوية الاخرى، فاننا لا نكاد نجد ثقلا بشريا لليهود في الحياة الفلسطينية. والاشارات القليلة التي ترد عنهم لا تنفي هذه المقولة بل تؤكدها في معظم الاحيان، لانها تطرح ارقاما محدودة إلى حد كبير لا تكاد تقارن باعداد الغالبية العظمى من سكان البلاد المسلمين. هناك اشارة الدمشقي إلى طائفة السامرة اليهودية التي يقول فيها " انه لا يوجد في بلد من البلدان من السامرة ما يوجد منهم بنابلس، ويقولون انهم لا يبلغون في بلد منهم الالف اصلا "[١]. وهناك اشارة الرحالة الاندلسي بنيامين التطيلي إلى وجود مائتي يهودي في عكا[٢]. وهذا الاخير رغم كونه يهوديا، ورغم ان رحلته انصبت بالدرجة الاولى على تدوين احصائيات عن عدد اليهود المنتشرين في المشرق، فانه لا يقدم لنا عبر رحلته في فلسطين غير هاتين المائتين من اليهود. وابن جبير عندما يتحدث عن النشاط التجاري المزدحم في مرفأ عكا يصفه بانه مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق[٣] ، ولا يشير بشيء إلى اليهود رغم حذقهم المعروف في ميدان التجارة. ولا ننسى هنا بطبيعة الحال – اشارة المقدسي – آنفة الذكر – إلى ان اكثر الصباغين والصيارفة والدباغين كانوا على عهده من اليهود، ولكن ذلك لا يقف دليلا على اتساع قاعدتهم العددية بين سكان فلسطين، فاكثر الصاغة في العراق إلى عهد قريب – وعلى سبيل المثال – كانوا من الصابئة الا انهم لا يعدون ان يكونوا اقلية ضئيلة جدا بالمقارنة مع سائر العناصر والفئات الاخرى.

وفضلا عن هذا فاننا عبر القرون العديدة التي تجول فيها الرحالة والجغرافيون وقدموا معطياتهم، لا نكاد نعثر على أية اشارة عن قيام فتنة دينية بين المسلمين واليهود في فلسطين ولا حتى إلى ما يوحي بنشوب توتر أو سوء تفاهم بين الجماعتين، وان دل هذا على شيء فانما يدل – من جهة – على انعدام ثقل اليهود في الحياة الفلسطينية بحيث انهم لا يشكلون تيارا سكانيا له خطره وتحدياته. ويدل – من جهة اخرى – على ما اشتهر به المسلمون من سماحة في تعاملهم مع ابناء الاديان السماوية الاخرى، كما علمهم كتابهم وسنة نبيهم عليه السلام، وكما عرفهم تاريخ المذاهب والاديان عبر القرون[٤]. و ليس ادل على هذا الانفتاح وعدم التشنج على

---

(١) نخبة ، ص ٢٠١.

(٢) رحلة ، ص ٩٣.

(٣) رحلة ، ص ٢٥٨–٢٨٦.

(٤) انظر على سبيل المثال : ياقوت : معجم ٤٢٢/١ ، ابن عبد الحق : مراصد ١٠٨/١ ، البلاذري: فتوح البلدان ، ص ١٣٨ ، ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٤١.

الاديان الاخرى، من تركيز جغرافيينا ورحالتنا اهتمامهم على كافة المنشآت والاثار الدينية سواء اكانت نصرانية ام يهودية، ومن الحديث عنها بنفس القدر من الاعجاب والتكريم والمحبة.

ان ثمة رواية يحكيها لنا الدمشقي قد تكون ادل ما نختم به هذه الملاحظات " يقال انه إذا اجتمع في طريق (واحد) مسلم ويهودي وسامري ونصراني، رافق السامري المسلم"[1].

(1) نخبة ، ص ٢٠١.

مصادر البحث

الادريسي : أبو عبدالله محمد الشريف (ت ٥٦٠هـ).
نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، تحقيق دوزي ودي غويه ، ليدن–١٨٦٦.
الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ).
مسالك الممالك ، ليدن–١٩٢٧.
ابن بطوطة : محمد بن عبدالله اللواتي (ت ٧٧٩هـ).
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار صادر– دار بيروت–١٩٦٤.
التطيلي : بنيامين بن يونة الاندلسي (ت ٥٦١–٥٦٩هـ).
رحلة بنيامين ، ترجمه عن الاصل العبري عزرا حداد ، المطبعة الشرقية بغداد–١٩٤٥.
ابن جبير : محمد بن احمد الكناني الاندلسي (ت ٥٧٨–٥٨٠هـ).
رحلة بن جبير ، مطبعة السعادة ، القاهرة–١٩٠٨.
ابن الحسين : اسحق.
آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ، روما–١٩٢٩.
الحنبلي : مجير الدين عبد الرحمن بن محمد.
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، المطبعة الوهبية ، القاهرة–١٨٦٦.
ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي (ت ٣٤٠هـ).
كتاب صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت؟
ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله (ت في حدود سنة ٣٠٠هـ).
كتاب المسالك والممالك ، تحقيق دي غويه ، ليدن–١٨٨٩.
الدمشقي : شمس الدين محمد الانصاري الملقب بشيخ الربوة (ت ٧٢٧هـ).
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مصورة عن طبعة ليبزك–١٩٢٣.
الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ).
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق ريفيس ، باريس–١٨٩٤.
ابن عبد الحق : صفي الدين (ت ٧٣٩هـ).
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق جرينبول ، ليدن–١٨٥٠.
العمري : أبو العباس شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ).
مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الاول تحقيق احمد زكي ، دار الكتب المصرية، القاهرة–١٩٢٤.

أبو الفدا : عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ).
تقويم البلدان ، تحقيق : رينود ودي سلين ، باريس–١٨٤٠.
ابن الفقيه : أبو عبدالله احمد الهمذاني (ت ٣٦٥هـ).
كتاب البلدان ، تحقيق : دي غويه ، ليدن–١٨٨٥.
قدامة بن جعفر : أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت ٣٢٠هـ).
نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، تحقيق : دي غويه ، ليدن–١٨٨٩.
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ).
آثار البلاد واخبار العباد ، تحقيق : وستنفلد ، غوتنجن–١٨٤٩.
المقدسي : أبو عبدالله محمد بن احمد البشاري (ت ٣٧٥هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي غويه ، ليدن–١٩٠٦.
النابلسي ، عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني (١٦٨٩م).
الحضرة السنية في الرحلة القدسية (عن مخطوطة المتحف الفلسطيني).
ناصر خسرو : الفارسي (ت ٤٨١هـ).
سفرنامة ، ترجمه عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب ، لجنة التاليف الترجمة ، القاهرة–١٩٤٥.
الهروي : علي بن الحسين (ت ٦١١هـ).
الاشارات الى معرفة الزيارات (عن نسخة المخطوطة ، المصورة في المتحف الفلسطيني).
ابن الوردي : أبو حفص عمر (ت ٧٤٩هـ).
خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، مطبعة الشيخ عثمان عبد الرزاق ، القاهرة–١٣٠٣هـ.
ياقوت : شهاب الدين عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ).
معجم البلدان ، تحقيق : وستنفلد ، ليبزك ، ١٨٦٦–١٨٧٣ ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تحقيق : وستنفلد ، غوتنجن ١٨٤٦.
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ).
كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه ، ليدن–١٨٩١.